



مذاهب و شخصیات

أحمد بن بيللا

ابن شمالی افریقا



بقلم
عمرو أحمد عمرو
عبد الرؤف أحمد عمرو



منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

مذہب و شخصیات

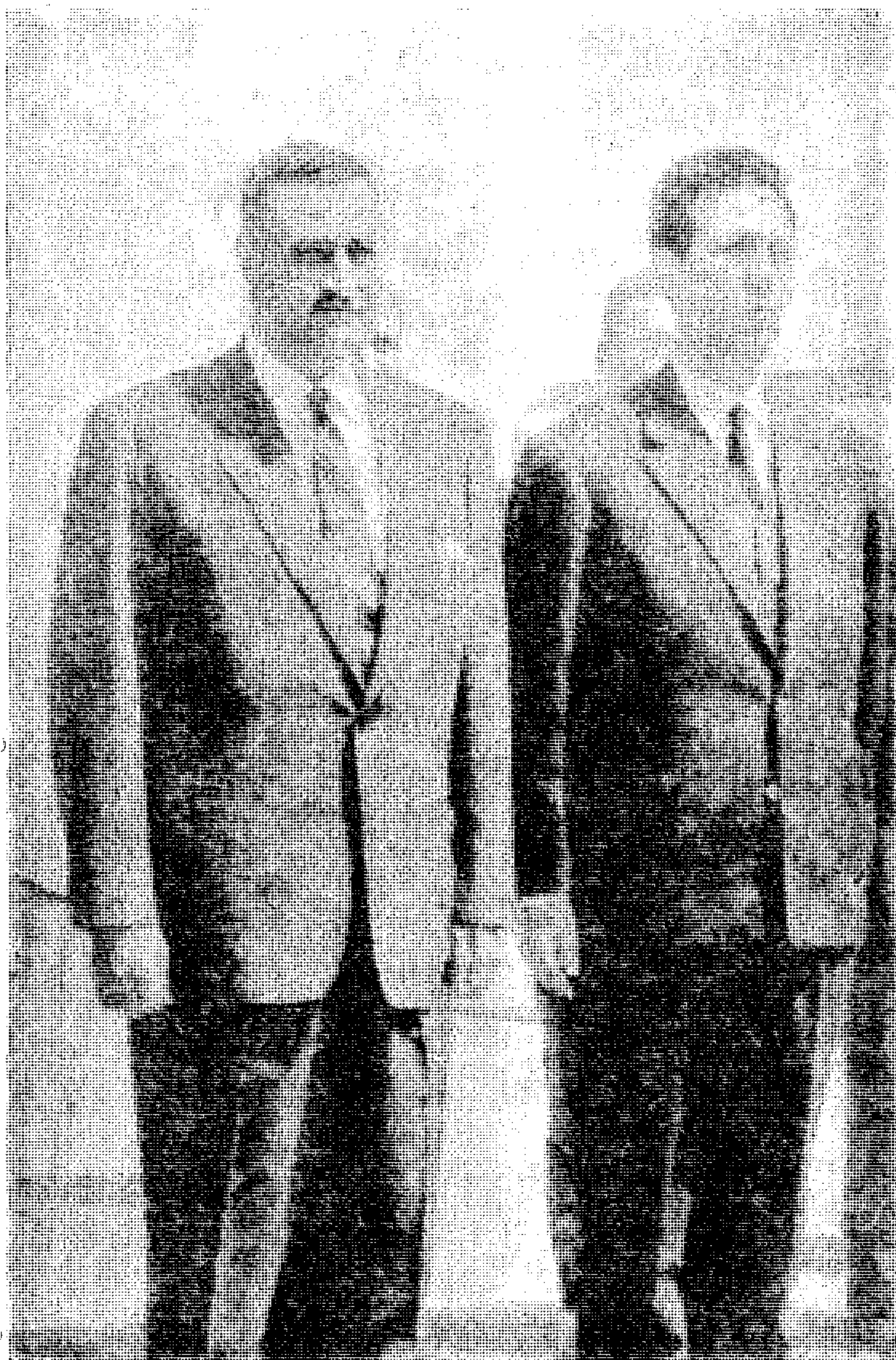
احمد بن یسار

ایک شمالی افریقیا

تألیف

عبدالرؤف احمد عترو

عترو احمد عترو





« أن الأسس العقائدية لثورتنا تتلخص في عروبتنا وإسلامنا هذه
هي الحقيقة »

أحمد بن بيللا

« ان ثورة الجزائر الرائعة لتمثل أمامنا ذروة من النضال الافريقى والنضال من أجل الحرية عموما . »

« . . . » واننا نتجه فى هذه الساعات بكل تأييدنا المادى والمعنوى فى غير ما حدود وبدون ما تحفظات لنضعها فى نصرة الجانب الجزائرى فى المفاوضات التى تجرى بين ثورة الجزائر وبين فرنسا ، واثقين أن نتيجتها لابد أن تكون على مستوى التضحيات النبيلة والأعمال الشامخة للشعب الحر الذى واصل النضال المسلح أكثر من سبع سنوات ، لا فى وجه فرنسا وحدها وانما فى وجه حلف شمالى الاطلنطى كله ، الذى كدست أسلحته ومعداته لقهر شعب الجزائر ، وعجزت أمام ارادته ، بل استطاعت هذه الارادة الحرة أن تقهر أسلحة حلف الاطلنطى ، وأن ترغمها على الاعتراف بشرعية مطالب الشعب الجزائرى فى حريته الكاملة وسيادته المطلقة على أراضيه وعلى مصيره . »

من خطاب السيد الرئيس جمال عبد الناصر
فى حفل افتتاح مؤتمر الشعوب الافريقية
بجامعة القاهرة يوم ٢٥ من مارس عام ١٩٦١

تقديم

بقلم حبيب جاماتي

في سنة ١٩٥٠ عدت من رحلة في الجزائر وكلي ثقة بأن ذلك القطر العربي العريق قادم على أحداث رهيبية ، وأن الشعب الجزائري الأبي ، الذي حط الاستعمار الفرنسي عليه بأثقاله ، وحاول بجميع الوسائل والأساليب أن يذل عزته القومية ، ويخنق في صدور أبنائه الروح الوطنية ، ذلك الشعب الذي سجل في صفحات التاريخ أمجادا رائعة ، يتحمل تلك الأثقال بدون أن يفقد عزته أو تتزعزع روحه ، ويعاني قسوة الحكم الأجنبي بدون أن يرضى به ، ويصبر على المكاره بدون أن يخنع لها ، بالرغم من الزمن الطويل الذي انقضى على غزو بلاده وضياع استقلالها واستئثار الغريب بخيراتنا .

إن ما رأيته في الجزائر وما لمستته فيها ، خلال تلك الرحلة ، جعلني أصدق ما سمعته من قادة الفكر الذين التقيت بهم هناك وتحدثت اليهم ، وهو أن البلاد على أبواب ثورة جديدة ، تضاف الى ماسبقها من ثورات عدة . وشاركتم في اليقين بأن الثورة القادمة مكتوب لها النجاح ، كله أو جله ، لأنها سوف تنشب في ظروف غير التي أحاطت بغيرها من الثورات السابقة .

والتقيت في القاهرة ، وباريس ، وروما ، وطنجة ، ومدريد ، قبيل اندلاع الثورة المصرية في ٢٣ من يوليو سنة ١٩٥٢ وبعدها ، ببعض من كنت قد قابلتهم في الجزائر ، فازددت يقينا ، من أحاديثي معهم ، بأن ما كانوا يتوقعونه ، واقع لا شك في ذلك ، وفي موعد غير بعيد .

وانفجرت المراحل الصدور في مطلع شهر نوفمبر سنة ١٩٥٤ ، وانطلقت الحمم من البركان الذي خيل للناس ، في وقت من الأوقات ، بأنه قد سكن الى الأبد ، وتلفتت أنظار العالم من كل صوب ، متطلعة الى الجزائر ، مصحوبة بأسئلة طافت على الألسنة في كل مكان : كيف حدث هذا ؟ وأين حدث ؟ ومن الذي فجر المراحل في الصدور ، وأطلق الحمم من البركان ؟

ومنذ ذلك الوقت ، عشت مع ثورة الجزائر يوما فيوميا وخطوة فخطوة . أسمع ، وأسجل وأنشر في الصحف بعض ما سمعت وسجلت . في شهر إبريل سنة ١٩٥٥ ، عرفت بعض أسرار الثورة الجزائرية من مندوبي قيادتها في مؤتمر باندونج .

وفي شهر نوفمبر سنة ١٩٥٥ ، عرفت بعض خفاياها ممن قابلتهم في مؤتمر صفاقس بتونس .. وفي القاهرة ، عرفت فريقا من الذين أوقدوا النار في البلد الذي كانت فرنسا تعتقد أنها نجحت في جعله قطعة متممة لأرضها ، وراء البحر المتوسط .

وعرفت مفجر المراحل ومطلق الحمم .

انه يتردد على العاصمة المصرية ، ملتقى الأحرار والثائرين ، فيقيم فيها أياما ، ثم يختفي لكي يعود ويقيم فيها ، مع زملائه ، أياما أخرى .

انه يعيش في جو من الحذر والتكتم . فالمصلحة ، مصلحة الثورة ، ومصلحة الشعب الذي قامت الثورة من أجله ، والذي بدأ يؤيدها ويساندها ، تقضى بالتكتم والحذر .

ذلك الرجل ، ذلك الشاب ، ذلك القائد الذي كان يعمل في صمت عجيب وثقة لا حد لها ، هو الذي يسرني كثيرا أن أكتب هذه المقدمة لسيرة حياته وتاريخ جهاده ، بقلم الأديبين عمرو أحمد عمرو وعبد الرؤوف أحمد عمرو ، تقديرًا مني لهذا السفر القيم ، وتحية للبطل الذي كتب له النصر في ميدان الحرب ، والفوز في حلبة السياسة : « أحمد بن بيللا » .

لقد صدق حدس الأحرار الجزائريين الذين أكدوا لي ، في سنة ١٩٥٠ ، أن بلادهم على أبواب ثورة جديدة ، وتحقيق اليقين بأن هذه الثورة مكتوب لها النجاح - النجاح كله ، لأجله فقط .

ان نتائجها تختلف في الواقع عن نتائج جميع الثورات التي سبقتها ، وتاريخ الجزائر كله ، منذ أن وطئت أرضها أقدام الغزاة المستعمرين في سنة ١٨٣٠ ، سلسلة متواصلة الحلقات من الانتفاضات المحلية ، والثورات الإقليمية ، والثورات الدامية .

ثورة أمير المجاهدين عبيد القادر بن محيى الدين ، التي كانت استمرارا للحرب التي شنتها فرنسا الملكية على شعب الجزائر ، والتي استمرت مدة ١٧ سنة كاملة ..

حلقة أولى من السلسلة الطويلة تبعثها حلقات .. ثورة بو معزة ، وثورة بو بغلة ، وثورة مولاي محمد بن عبد الله ، وثورة بو سعدة ، وثورة لالا فاطمة ، وثورات أولاد سيدي الشيخ ، والحاج محمد المغراني ، والشيخ الحداد ، وبو عمارة ، وغيرهم وغيرهم ..

ثورات امتدت على مدى الأعوام ، منذ وقوع الأمير عبد القادر في الأسر سنة ١٨٤٧ ، الى سنة ١٨٨٤ ..

وثورات أخرى في أوائل القرن العشرين ، وعلى الخصوص في سنة ١٩٠٢ وسنة ١٩١٤ وسنة ١٩١٦ .

تلك الثورات التي لم ينقطع حبها الجرار ، لم تسفر عن بلوغ الهدف الأسمى ، أي تحرير الجزائر من الحكم الأجنبي ، ولكنها كانت غذاء للروح القومية - فأبقتها حية في الصدور ، ومهدت بمراحلها الطويلة

المتابعة ، لتهيئة الجو لثورة حاسمة عارمة ، قدر لأحمد بن بيللا أن يطلق رصاصتها الأولى في أول يوم من أيام شهر نوفمبر سنة ١٩٥٤ ، وكتب له أن يختم بها صفحات الجهاد المرير ، التي سجل سطورها الأولى الأمير عبد القادر الجزائري ، قبل ذلك بقرن وربع قرن .

بعد ثورة عام ١٩٥٤ ، وبفضلها ، تحولت الأمنية التي اختلجت في الصدور خلال تلك الحقبة من الدهر ، الى حقيقة ملموسة واقعة .

وعلى أيدي أحمد بن بيللا ورفاقه الغر الميامين ، تمت معجزة من أعجب معجزات العصر الذي نعيش فيه ، بإفلات الجزائر من الأسر ، وانضمامها الى الركب العربي المتحرر المنطلق الى الامام . .

ان ثورة الجزائر التي أضرم نارها أحمد بن بيللا ومعه رهنط مبارك من اخوانه ، لا يتجاوز عددهم أصابع اليدين ، والتي اندفع في تيارها الشعب الجزائري كله ، برجاله ونسائه ، بشيوخه وأطفاله ، ماعدا حفنة قليلة من الضالين وضعاف النفوس ، تلك الثورة التي أدهشت العالم وأثارت إعجابه ، لم يكتب تاريخها بعد ، ولن يكتب بكامله قبل مضي بضعة أعوام عليها . وما يكتب الآن وفي الغد القريب ، ليس أكثر من خطوات في الطريق الطويل ، أشبه باللبشات التي ترص الواحدة منها فوق الأخرى ، لكي يتألف منها ، في النهاية - البناء الشامخ المأمول .

والكتاب الذي يضعه الآن بين أيدي القراء الأديبان عمرو أحمد عمر وعبد الرؤف أحمد عمرو ، خطوة بين تلك الخطوات ، ولبنة من تلك اللبشات . وهو ثمرة مجهود يشكر ، في المرحلة الأولى من مراحل تدوين تاريخ الثورة الجزائرية . وسوف يكون له مكانه الممتاز بين نتاج الاقلام ومحصول المطابع .

ففي هذا الكتاب ، حلل المؤلفان شخصية أحمد بن بيللا ، ووصفا الظروف والملابسات التي أحاطت به ، وتبعاه في الطريق الوعر الذي سار فيه ، وسجلا من خلال ذلك كله تطور الثورة التي أطلقها من عقاليها في وطنه المقيد ، والتي أسفرت عن تحطيم القيد والوصول الى رحاب الحرية والاستقلال والسيادة .

ورفع المؤلفان طرفا من الستار عن تفاصيل ومعلومات وخبايا لم تذخ بين الناس قبل الآن . واستندا في عملهما المشكور الى ما بذلاه شخصيا من جهد ، وسعيا اليه من استقصاء كما استقيا أيضا من مصادر ومراجع دفعتهما أمانتهما الأدبية الى التنويه بها في ختام كتابهما .

ففي هذا الكتاب ، سيرة رجل من خلال قصة ثورة ، أو قصة ثورة من خلال سيرة رجل وذلك في أسلوب سهل لا تصنع فيه ولا تعقيد . وهو خير أسلوب يتفق مع حياة بطل القصة وبطل السيرة في آن واحد ، أحمد بن بيللا .

وقد جاء الكتاب في تفاصيله وفي مجموعته ، تحية طيبة الى الزعيم المجاهد ، الذي كان أول من أعلن الثورة في الوطن الجزائري المستعبد ، ثم كان أول من ترأس الحكومة الحرة ، في الوطن الجزائري الحر .

جعل الله العهد الجديد في الجزائر فاتحة عصر كله خير وبركة . ووفق
العاملين في سبيل ذلك الخير وتلك البركة . وأبعد عنهم الخصام . وأحل
بينهم الوثام لكي يجرى النصر التام في ميدان السلم والبناء ، متمما للنصر
التام الذي أحرزه الشعب الجزائري في ميدان القتال والفداء .

القاهرة : شعبان عام ١٣٨٢

يناير عام ١٩٦٣

حبيب جاماتي

الرئيس الملتصق

وصلت الى القاهرة برقيتان عاجلتان ، احدهما الى احمد بن بيللا ،
والأخرى الى محمد خيضر ، تخبرهما بضرورة السفر على الفور الى المغرب ،
ومع البرقيتين جاءت تأكيدات بأنهما سيكونان في ضيافة جلالة الملك محمد
الحامس ، وفي حمايته .

وتوجه على الفور أحمد بن بيللا الى قصر الطاهرة حيث اجتمع مع
الرئيس جمال عبد الناصر ، وعرض عليه الأمر . ومرت لحظات ، كان
بن بيللا يتفحص فيها وجه عبد الناصر وعيناه معلقتان به وهو شاخص
ببصره بعيدا ، ثم نظر الى أحمد بن بيللا وقال له على الفور :
- احذر من السفر الى الرباط !

ومرت لحظات قلائل ، وأكمل الرئيس جمال بعدها كلماته قائلا :

- اننى أشعر أن شيئا سوف يحدث لكم لو سافرتم . ان أحسناسي
يقول انكم لو سافرتم فقد لا نلتقى مرة أخرى . ابقوا في القاهرة ولا
تسافروا !

وبدت الدهشة على وجه أحمد بن بيللا . . .

آخر ما كان يتصوره أن يقول له الرئيس جمال عبد الناصر :
- لا تسافر !

وقال والدهشة مازالت مرتسمة على محياه :

- ماذا تتصور سيادتكم أن يحدث لنا ؟

فقال جمال عبد الناصر ونبرات صوته تعلو : « أن شعوري يجذبنى
بأن سافركم هذا فيه خطر عليكم ! »

وخرج أحمد بن بيللا من قصر الطاهرة ، وكلمات الرئيس جمال
عبد الناصر تملأ ذهنه ، وتتردد في عقله .

وقرر ألا يسافر الى المغرب ، مادام الرئيس قد نصحه بعدم السفر
اليه .

وفجأة ، أصر أحمد بن بيللا على السفر . فهو يضع قضية الجزائر قبل
أى اعتبار آخر . انه يخشى على الثورة الجزائرية . وماذا لو سافر الى
تونس للاجتماع بملك المغرب والحبيب بورقيبة ، في مؤتمر يعقد هناك
للتحدث في وقف اطلاق النار ، دون أن يمر بالرباط ؟

وأرسل برقيتين عاجلتين ، أحدهما كانت الى حسين آية أحمد
في نيويورك والآخرى الى مصطفى الأشرف في باريس على أن يتم لقاء
الزعماء في مدريد خلال أربع وعشرين ساعة .

وفي ليلة من ليالى أكتوبر عام ١٩٥٦ رجع أحمد بن بيللا الى حجرته
حيث يفيم في شعة مع سيده تدعى بدور مصطفى العمروسي ، في الطابق
السادس بعمارة الشربتلى في شارع ٢٦ يوليو بالقاهرة . رجع مبكرا
في هذه الليلة . . . وجلس مع السيدة التى ألف أن يحكى لها قليلا عن أموره
الخاصة وكثيرا عن بلاده . وراح يحدثها وكان يضحك كثيرا على غير عادته .
قال لها انه مسافر فى الصباح الباكر . وربما غاب شهرا . كان يبتسم
ويضحك وهو يقول لها ان الجزائر ستنتصر ، وستتحرر بعد ستة شهور
فقط .

وكانت السيدة تنظر اليه وقلبهسا يخفق ، ودعواتها تتصاعد الى
السماء ، الى الله القوى ، أن ينصر الجزائر المظلومة على فرنسا الباغية . . .
وقبل أن ينام أحمد بن بيللا قال لها ان جرس التليفون سيدق في
الثالثة صباحا ، وبغدها عليها أن توقظه من النوم .

وذهب أحمد بن بيللا لينام . . . تمدد على سريره وراح يحاول أن
ينام ، ولكن عينيه مازالتا مفتوحتين ، تأييان أن تدعاه ينام . . . وفي خياله
كان يمر شريط طويل مزدحم بالصور والذكريات .

هذا المؤتمر الذى سيعقد في تونس هو محاولة للوصول الى حل
لقضية الجزائر . . .

ان هذه المفاوضات أو المشاورات مع تونس ومراكش هامة للغاية .
حتى تتألف وحدة لشمال إفريقيا فى المستقبل ، وتتحور الجزائر من
الخطبوط الفرنسى .

ومر في شريط الذكريات أمامه هذا السؤال :

« ألم تحاول فرنسا أن تصل الى اتفاق مع زعماء الجزائر منذ عدة
أسابيع . وهى تقوم بمباحثات على جانب كبير من السرية مع هؤلاء الزعماء .
في يوغوسلافيا ؟ »

فرنسا تحاول أن تصل الى هذا الاتفاق بأى ثمن قبل حلول موعد
اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة .

وتتابعت الصور في خيال بن بيللا وهو يتمثل للنوم ، وعيشاه
ما زالتا مفتوحتين .

ألم يكن جى موليه رئيس حكومة فرنسا هو الذى ألقى خطابا في
اجتماع عقده ببيت أمريكا اللاتينية في باريس ، وقال فيه عن الجزائر :
« ان فرنسا مستعدة لبذل كل التضحيات الممكنة من أجل الاحتفاظ بالجزائر
التي تعد حجر الزاوية في بناء الاتحاد الفرنسى ، وان حكومتى تستهدف
أولا وقف القتال ، واستعدادها للاتصال بالشوار المحاربين بشرط أن يكون

هذا الاتصال رسميا مباشرا للكف عن الحرب ، على ان يلى ذلك بعد ثلاثة اشهر على الأكثر انتخابات حرة ، تأتي بنواب تتفاوض معهم فرنسا في اقرار نظام الحكم » .

وبعد هذا التصريح دعيت جمعية التحرير الجزائرية الى اجتماع حضره جميع زعماء الحركة واستعرضوا فيه خطاب رئيس الوزارة الفرنسية . واتفقت كلمتهم على أنه لا وجه للمفاوضة الا اذا قبلت فرنسا مبدأ استقلال الجزائر .

وتذكر نفسه وهو يحذر زملاءه المجتمعين من الانخداع بأقوال رئيس وزراء فرنسا وقال : « ... وربما كان في نية الجانب الفرنسي أن يستدرجكم الى محادثات طويلة يحاول بها أن يفوت علينا السعي في عرض قضية الجزائر على الامم المتحدة ، هذه المباحثات السرية التي ابتدأت من شهر يوليو بيننا وبين فرنسا عندما وصل مندوبون فرنسيون الى القاهرة للاجتماع بمحمد خيضر ، لكم كانت تود فرنسا أن تعرف مكانى ... هل أنا في القاهرة ؟ في ليبيا ؟ في تونس ؟ في الجزائر نفسها ؟ المخابرات الفرنسية نفسها تريد أن تعرف ... تعقبتنى في كل مكان وتود فقط أن تعرف أين أنا ؟ وحمل المندوبون الفرنسيون مشروعا سلموه الى محمد خيضر وعرض على جبهة التحرير الجزائرية ورفضناه بالاجماع ! »

وتفاهمت بعد ذلك دولة أوربية محايدة مع ممثلى الجزائر في القاهرة على الدخول في مفاوضات مع ممثلى الحكومة الفرنسية لوقف إطلاق النار ، ومنع مراكش استقلالا ذاتيا واسع النطاق .

وتأبى عينا أحمد بن بيللا أن تغمضا جفتيهما ... ويستعصى عليه النوم ... وتتتابع الصور والذكريات أمام ناظره .

عقد الاجتماع الاول في روما بعد هذه المحادثات التمهيدية التي جرت في القاهرة . كان يمثل الحكومة الفرنسية مسيو بيري كومان السكرتير العام للحزب الاشتراكي الفرنسي ، وعضوان من اللجنة المركزية للحزب ، ومثل الجزائر زملائي في الجهاد ، أخوتى محمد خيضر ومحمد يزيد ودكتور فرنسيس ولم يكن الاجتماع الاول رسميا ، وفي أثنائه الح الجزائريون في أن يكون المندوبون الفرنسيون مفوضين تفويضا كاملا رسميا من جانب حكومتهم لاجراء المفاوضات .

وقال المسيو كومان انه يقسم بشرفه انه يتحدث باسم رئيس الحكومة الفرنسية ، وأن هذه الحكومة ستكون مقيدة بكل شيء يقوله .

ولكن الوفد الجزائري رفض هذا الكلام ، وقال انه لا غنى للوفد الفرنسي عن منحه سلطة كاملة لاجراء المفاوضات الرسمية .

وعاد كومان الى باريس ...

ورجع الى روما ومعه هذا التفويض ...

وكان الاجتماع الثانى رسميا شهده المندوبون الفرنسيون والجزائريون ، وسفير دولة محايدة كمشاهد لما يحدث ...

وقال كومان بحضور السفير المحايد انه يمثل الحكومة الفرنسية رسميا ، وانه جاء الى روما ليقاوض ممثلي الجزائر فغادر السفير المحسايد الاجتماع لان وجوده لم يعد شيئا ضروريا ، بعد ان نجحت الوساطة . . .
وبدأت المحادثات المباشرة . . .

وفي اثناء تلك المفاوضات الرسمية التي بدأت بعد ذلك سلم الفرنسيون الوفد الجزائري ورقة كأساس لتسوية مشكلة الجزائر .

أولا : تمنح الجزائر استقلالاً ذاتياً إدارياً .

ثانياً : يمثل الشعب الجزائري برلمان منتخب انتخاباً حراً .

ثالثاً : تؤلف وزارة جزائرية وطنية حرة .

رابعاً : تحدد العلاقات المستقبلية بين فرنسا والجزائر بعد ذلك .

وعقدت ثلاثة اجتماعات طويلة شرح فيها ممثلو فرنسا هذه المبادئ وقالوا ان الاستقلال الذاتي سيكون أوسع نطاقاً مما منح لتونس .

وأحسن الجزائريون في أثناء هذه المفاوضات أن مندوبي فرنسا يتجنبون أية إشارة الى الاستقلال التام . ويومها قدم الوفد الجزائري الاقتراحات التي اتفقنا عليها وهي :

أولا : أن تعترف فرنسا بحق الجزائر في الاستقلال التام .

ثانياً : أن تؤلف حكومة وطنية جزائرية مؤقتة لمفاوضة فرنسا ، بالاتفاق مع جبهة التحرير الجزائرية .

ثالثاً : اعرب المفاوضون الجزائريون عن أملهم في أن تقبل فرنسا تسوية سلمية لمسألة قناة السويس ، مع احترام حقوق مصر كدولة ذات سيادة . احتراماً كاملاً ، لأن تسوية هذه المشكلة ستساعد على حل مشكلة الجزائر .

وقال الزعماء الجزائريون للفرنسيين انه لا بد من الاتصال بالزعماء المقيمين في بلادهم ولهذا يجب أن تسمح فرنسا بأن يدخل المفاوضون الجزائريون بلادهم للاتصال بالزعماء أو تسمح للزعماء بمبارحة الجزائر لتسهيل المشاورات . وقال المفاوضون الجزائريون ان الاتصال مستمر بينهم وبين زملائهم في الداخل ، ولكنه ليس كافياً .

وقال كومان ان فرنسا ستيسهل هذه الاتصالات .

وبعد هذا بقي خيضر هناك في أوروبا ، وبارحها محمد يزيد والدكتور فرنسيس .

صحيح أن بن بيللا لم يجتمع في هذه المفاوضات . . . ولكنه اشترك فيها . . . وكان على اتصال بكل ما يدور بين الجانبين ، ويسافر من بلد الى بلد آخر ليقوم بدوره الهام من أجل الجزائر .

وطار المبعوث الفرنسي الى باريس ليعرض النتائج التي وصل اليها
على الحكومة الفرنسية .

وكادت هذه المباحثات تفشل لولا ان جى موليه رئيس الوزراء بعث
رسوله من جديد الى بلجراد لاستئناف هذه المباحثات

المباحثات من أجل الاستقلال التام للجزائر . . .

آه . . . ! لو يتحقق هذا الحلم الجميل وتستقل الجزائر . . . عند
هذا غمضت عينا أحمد بن بيللا . . . وراح فى نوم ليس عميقا . . . !

ودق جرس التليفون فى الساعة الثالثة صباحا . . . واستيقظ
أحمد بن بيللا على صوت الرنين المزعج وسط سكوت الليل . وتناول
سماعة التليفون . . . وتحدث دقيقة كاملة مع الطرف الآخر ثم وضع
السماعة .

ودخلت السيدة بدور مصطفى حجرته وحيته بتحية الصباح
وساعدته فى تجهيز حاجاته . . .

وفى دقائق كان متأهبا للسفر . . .

وودعها . . . ودلف الى الخارج مع نسيمات الفجر الباردة . . . وصوت
مؤذن على بعد يتناهى الى سمعه . . . الله أكبر ! الله أكبر ! . . .

ووقف أحمد بن بيللا لحظة على رصيف الشارع . ونظر الى السماء
وقلبه يردد : الله أكبر . . . الله أكبر ، على فرنسا الباغية الله أكبر مع
الجزائر والنصر لها !

وتقابل مع زميله فى الكفاح محمد خيضر فى المكان الذى حدداه ،
وانطلقا فى عربة تنهب الارض الى المطار .

وركبا الطائرة من القاهرة الى مدريد ، وأحسا بلوعة الشوق للقاهرة
والطائرة ترتفع بهما عن أرض المطار . صحيح انهما يتنقلان ويسافران
كثيرا ولكنهما شعرا هذه المرة وكل مرة بالشوق للقاهرة .

وفى مدريد التقيا بزملائهما .

وقرر بن بيللا بعد تفكير ان يسافروا الى « تطوان » عاصمة المنطقة
الاسبانية التى يطالب المغرب بضمها وان يبقى فيها هؤلاء الزعماء حتى
يجتمعوا بالملك محمد الخامس هناك ، بعيدا . فهذه المنطقة ليست تحت
سيطرة القوات الفرنسية .

وأقبلت الطائرة بأحرار الجزائر من مدريد الى تطوان ونزل الزعماء
الخمسة ، أحمد بن بيللا ، ومحمد خيضر ، ومحمد بوضياف ، وحسين
آية أحمد ، ومصطفى الأشرف ، واستقبلهم الامير مولاي الحسن ولى عهد
المغرب واراد ان تقلهم جميعا طائرة الى الرباط . واعتذروا جميعا عن
السفر الى هناك .

وراح الامير الحسن يحاول اقناعهم قائلا ان الموقف يستدعى ان

يجتمع بهم والده الملك محمد الخامس قبل سفره الى تونس ، وانهم سينهبون الى الرباط في حمايته ضيوفا على الملك .

وقال الامير الحسن انه مسئول شخصيا عن سلامتهم .

وعند ذلك قبل الزعماء الجزائريون السفر الى الرباط . وسافروا اليها مع الامير الحسن في طائرته الخاصة .

واستقبل الشعب المغربي الزعماء الجزائريين استقبالا هائلا اثار احتجاج السلطات الفرنسية .

وحدد موعد الاجتماع بين الملك محمد الخامس والزعماء الجزائريين حيث عرضوا عليه وجهات نظرهم ، وأعربوا له عن قلقهم من حدوث شيء مما زالت كلمات الرئيس جمال عبد الناصر يتردد صداها في اذن أحمد بن بيللا .

ولكن الملك أكد لهم انه مسئول شخصيا عن سلامتهم ، وطلبوا أن تطير بهم الطائرة عن طريق مدريد ثم تونس ، وأرادوا أن يعرفوا خط سير الطائرة التي ستقلهم الى تونس بالضبط .

وأزف الوقت . فهناك في تونس ينتظر الزعيم الحبيب بورقيبة على موعد مع الملك ومع زعماء الثوار . وسوف تجري مشاورات بينهم لتستأنف بعدها المفاوضات مع فرنسا لحل أزمة الجزائر .

وقال الملك محمد الخامس وهو يشد على أيدي المجاهدين :

— سافروا على بركة الله ، وسأعطيكم رسما بيانيا يوضح لكم سير الطائرة .

وراودت عقل الملك فكرة ...

ماذا لو أخذ معه بن بيللا زعيما جزائريا آخر في الطائرة الملكية التي ستقله الى تونس ؟

ولكن القائم بالاعمال الفرنسي أبلغ الملك سرا انه من الافضل أن يركب الزعماء الجزائريون طائرة أخرى غير طائرة الملك حتى لا يحدث ركوبهم معه شيئا من الضيق والحرج للحكومة الفرنسية .

وذهب الزعماء الجزائريون ، أحمد بن بيللا ، ومحمد خيضر ، ومحمد بوضياف ، وحسين آية أحمد ، ومصطفى الاشرف الى المطار . وقبل أن يتقدموا لركوب الطائرة المدنية التابعة لاحد خطوط الطيران المغربية ، والتي كانت محجوزة للمصحفين ، أسرع الخطي نحو أحمد بن بيللا شاب جزائري وتقدم منه حتى وقف أمامه ، وقدم اليه مدفعا وشاشا صغيرا وقال له : « خذ هذا معك ! »

وضحك أحمد بن بيللا . وخفتت أصوات التعليقات التي كان يتبادلها الحاضرون والمسافرون ، بل وتوقفت تماما ، وبدت دهشة غامضة تعلو وحوه الحاضرين .

وقال أحمد بن بيللا للشباب الجزائري :
- اننا لسنا ذاهبين الى الجزائر !

فرد الشاب : « خذ ٠٠٠ فمن يدري ؟ »

ولم يشأ أحمد بن بيللا اغضاب الشاب فأخذ المدفع الرشاش الصغير منه ووضعه في حقيبة اليد التي كان يحملها .

عندما ركب أحمد بن بيللا الطائرة هو وزملاؤه وجدوا معهم عشرة ركاب آخرين ، كان من بينهم مراسل صحيفة نيويورك تايمز الامريكية بنظارته السمكية التي تخفى نفاذ بصره ، وأنسة تعمل مراسلة للجريدة « الاستقلال » المراكشية ، ثم صحفي آخر يعمل مراسلا لصحيفة فرانسى أوبزيرفايتر ، وتاجر وبعض الاشخاص الآخرين أما قائد الطائرة فقد كان فرنسيا ومضيفتها أيضا فرنسية .

وجاء ميعاد اقلاع الطائرة . وبدأت ترتفع عن الارض : انها في طريقها الى مدريد ، ومن هناك الى تونس .

كانت الدقائق تمر ثقيلة وبطيئة

والزعماء الجزائريون يتعجلون الوصول الى تونس ، فهناك ستدور المشاورات مع الملك محمد الخامس ومع الرئيس الحبيب بورقيبة ، وبعد ذلك ستتقدم قضية الجزائر خطوات في طريق الكفاح الدامى نحو الاستقلال والحرية .

واللحظات تمر بطيئة ، وازين الطائرة يشتت الافكار

وبعد ثلاث ساعات بدأت الطائرة تهبط . ظن أحمد بن بيللا وزملاؤه فى أول الامر أنهم وصلوا الى تونس . ولكن الركاب جميعا فوجئوا بقائد الطائرة يخبرهم بأنهم هبطوا فى جزيرة ميوركا الاسبانية ، لأن الطائرة فى حاجة الى وقود .

وبدأ الشك يداعب قلب بن بيللا ويساور خياله ، وزملاؤه يسألون والمسافرون جميعا يتساءلون .

- لماذا غيرت الطائرة اتجاهها ، كيف تطير دون أن تزود بالوقود الكافى ؟

وكان قسم الارصدة الجوى التابع للجنرال لوديللو الفرنسى فى الجزائر قد رسم الخطة كاملة .

أرسلت القيادة الجوية الفرنسية فى الجزائر أمرا الى القومندان « جريليه » قائد الطائرة التى تقل أحمد بن بيللا وزملاءه عندما كانت تهبط فى مطار بالما بجزيرة ميوركا الاسبانية بأن تتجه فورا الى الجزائر .

نعم الى الجزائر وليس الى تونس !

المؤامرة بدأت خيوطها تنفذ فى هذه اللحظات وزملاؤه يتعجبون

الوصول الى تونس • وهناك حيث يتطلع الى السماء الحبيب بورقيبة والملك محمد الخامس في انتظار وصولهم •

وبدأت اسلاك البرق تهتز بشدة ...

واتصالات سريعة تدور في سرية وخفاء ...

وأبلغ قائد الطائرة الامر الى رؤسائه الفرنسيين في الرباط •

وعلمت السلطات المغربية أن الطائرة قد هبطت في الجزيرة الاسبانية ، فأبرقت الى قائد الطائرة بأن يبقى في بالملا ولا يبرحها • وأخطرت الملك في تونس بهذه القصة •

وقام الملك على الفور بالاتصال بسفير فرنسا في تونس •

واتصل السفير في الحال بمسيو سافاري وزير الشؤون المغربية والتونسية في الوزارة الفرنسية •

وحاول مسيو سافاري الوزير الفرنسي أن يوقف تنفيذ المؤامرة التي بدأت تتضح ... وأحمد بن بيللا لا يدري ! ..

وأقلعت الطائرة ثانية بعد أن تزودت بالوقود • الطائرة الآن متجهة في طريقها الى تونس ... هكذا يراها أحمد بن بيللا وزملاؤه ، بل وجميع المسافرين •

وكانت الطائرة تتجه الى تونس بالفعل ، فقد كان قائد الطائرة ذكيا وماكرا •

وتلقى قائد الطائرة اشارة لاسلكية أخرى تأمره باسم الحكومة الفرنسية بالاتجاه الى الجزائر ... وكان على وشك أن يفعل هذا حتى قبل أن تأتي اليه هذه الاشارة •

ودار الطيار بطائرته حول نفسه دورتين ، ثم غير طريقه ... انه يتجه الآن الى مكان آخر غير تونس ... انه ماكر وذكي •

ومضت لحظات قصيرة ...

ولم يعد الطيار يستطيع أن يتمالك نفسه .. وكانت الساعة قد قاربت السادسة مساء ، وأشار للمضيفة أن تقترب منه ليندلي لها بسر المؤامرة •

وقال لها وهو يقترب من أذنيها : « اعتبري الآن نفسك من عظيمات النساء اللاتي دخلن التاريخ ! »

وعلت الدهشة وجه مضيفة الطائرة ، وأوشكت أن تفتح فاهها دهشة فهي لم تفهم شيئا •

وأردف الطيار يقول لها : « انك ستريين الليلة حدثا تاريخيا كبيرا فاستمعي جيدا لما أقوله لك ، ... ولكن تمالكي أعصابك • ! »

ومرت لحظات ... كانت المضيضة الجميلة قد عرفت السر الذي كان مفاجأة لها .

... ومرت المضيضة بين المسافرين ، وتقدمت الى محمد بوضياف حيث كان مستغرقا في فكرة تأخذ بالبابه ، وابتسمت له وهي تقول انها ستقرأ له طالعها ، وأمسكت بكفه ونظرت اليه نظرات مأكرة ، ونطقت بعبارات غريبة ..

قالت المضيضة : « انكم ذاهبون الى مهمة كبيرة ... ولكنها لن تقضى ... لن تصلوا الى مكان المهمة ! »

ورد محمد خيضر عليها في غيظ يعد أن تناهت الى سمعه كلماتها ، فقال :

« لا ... اننا مصممون على الوصول .. وسنصل الى الهدف ، سنصل اليه مهما كانت الصعاب » .

وابتسمت المضيضة في دهاء ، بل وانفجرت شفتاها الجميلتان من ضحكة فيها خبث ومكر وذكاء .

تعملت المضيضة أن تحول انتباه الزعماء الجزائريين عن النظر من النافذة ، نافذة الطائرة المتجهة الآن الى بلادهم .. الى ديارهم ... التي حرمت عليهم ... وهم جميعا لا يدرون !

وحلق في السماء سرب من طائرات الميسستير الفرنسية! وأحاطت بالطائرة ... لتقودها الى مطار الجزائر .

وبدأت الطائرة تهبط ، وشعور بالقلق يداعب قلوب الاحرار ، بل واحساس خفي يشد انتباههم ، فيتطلعون من نافذة الطائرة فيرونها تقترب من أرض المطار ...

وكانت الساعة التاسعة والثلاث مساء ... انه يوم ٢٢ من أكتوبر سنة ١٩٥٦ .

وفوجيء الجميع بالطائرة وهي تقف ، ثم تطفأ أنوارها على حين انبعثت أضواء مسلطة من كشافات مصوبة الى الطائرة من الخارج .

ونظر بن بيللا وزملاؤه ، ونظر الصحفيون أيضا ورأى الجميع المفاجأة ... جنود الباراشوت الفرنسيين مدججين بالسلاح يملئون المكان ..

وظن البعض أنهم في تونس فعلا .

وقال صوت ما بداخل الطائرة : « يبدو أن شيئا ما حدث في تونس ! »

ولكن صوت بن بيللا ارتفع في الظلام قائلا :

— كلا ! لقد عدنا الى الوطن ... نحن في الجزائر !

ونظر أحمد بن بيللا الى زملائه والقلق والحيرة تلفهم جميعا . فقد بدأت الأمور تتضح لهم في بطنه الآن فقط بن بيللا وزملاؤه يدرون بما يدور حولهم .

الظلام يخيم على الطائرة ، والكشافات القوية مسلطة عليها من الخارج ، وباب الطائرة يفتح ووقف بن بيللا وزملاؤه ليروا أرض المطار . . انه مطار البيت الأبيض في الجزائر .

المطار قد تحول الى ثكنة حربية ، الى قلعة يملؤها الجنود أكثر من أربعة آلاف جندي وقفوا بملابس الميدان في انتظار الزعماء الخمسة والمدافع الرشاشة مصوبة نحو الطائرة ، وعلى بعد قليل تقف السيارات المصفحة والدبابات .

وصاح أحد الضباط الفرنسيين بشماعة :

— أهلا . . . أهلا بين بيللا ، رئيس حكومة الجزائر المستقلة . . .
تعال لكي تتولى منصبك الخطير . . .

وأجبر الزعماء والمسافرون جميعا على النزول من الطائرة قفزا دون استعمال سلمها . . . على حين كان جندي فرنسي يصيح بصوت عال :

— انزلوا حالا . . . وأيديكم مرفوعة في الهواء . . والا أطلقنا النار ! . .

وقفز أحمد بن بيللا الى الأرض من باب الطائرة . . . وقال على الفور للجندي الذي كان يصوب المدفع الرشاش اليه : « كما ترى ليس معنا سلاح . »

ونظر بن بيللا حوله . . ثم الى زملائه ، وبدأت كلمات الرئيس جمال عبد الناصر تتجسم أمام عينيه وتتردد في صدى تسمعه أذناه :
الآن ، أصبحت مخاوفه حقيقة . لقد صدقت أحاسيس عبد الناصر .

وهز بن بيللا رأسه وقال في لهجة احتقار وازدراء بالفرنسية :

— لعبة بارعة ! . . ولكن لا شيء سيتغير ! . .

ومرت لحظات قصيرة . وبسرعة فائقة كان أحمد بن بيللا يتلع شيئا : انها أنبوبة مليئة « بسيانور البوتاسيوم » السام ، والتي يحمل كل زعيم من قادة جبهة التحرير أنبوبة مماثلة لها ، فقد أقسم قادة الثورة جميعا أن يموتوا ولا يقع واحد منهم حيا في أيدي الفرنسيين .

لو مات واحد منهم ، فهناك عشرة ملايين مجاهد من شعب الجزائر يحملون السلاح بدلا منه .

ولمض أحد ضباط المخابرات الفرنسية لأحمد بن بيللا وهو يتلع الأنبوبة . وعلى الفور أمر بنقله بسرعة الى المستشفى العسكري الملحق بالمطار حيث أجريت له عملية غسيل للمعدة .

وتم انقاذ أحمد بن بيللا .

وكاد الصحفي توم برادى مراسل صحيفة نيويورك تايمز الأمريكية أن يسقط قتيلا . ففي أثناء خروجه من باب الطائرة وضع يده فى جيبه الداخلى ، ووجه الجنود مدافعهم الرشاشة اليه ظنا منهم انه سيخرج سلاحا ، فاذا به يخرج بطاقته الصحفية ، ويقول لهم انه أمريكى .

وكانت فى انتظارهم سيارتان من سيارات نقل الجنود . وتقدم الجنود من أحمد بن بيللا ومحمد خيضر ومحمد بوضياف وحسين آية أحمد ومصطفى الاشرف . وكبلوهم بالقيود السلاسل . ونظر أحمد بن بيللا الى ضابط فرنسى كان يقف بالقرب منه وقال له :

— هذا هو معنى الثقة بالفرنسيين ، ولمثل هذا كان جى موليه يستدرجنا فى خطابه الذى ألقاه يوم ٢٢ من يونيو الماضى !

وحملت إحدى السيارات الزعماء الخمسة بعد أن أطلق سراح الصحفي الأمريكى . ووضعوا فى معسكر الاعتقال .

وشددت الحراسة ، بل صدرت الأوامر لجميع القوات الفرنسية فى تلك الليلة بأن تتنبه لهجمات الجزائريين .

وأضى الزعماء الخمسة ليلتهم الأولى فى السجن مكبلين بالأغلال ... وكانت ليلة ستظل ذكرها ماثلة فى عقل أحمد بن بيللا الى الأبد .

وقبل أن تبزغ الشمس دخل عليهم الجنود الفرنسيون وفتشوهم بطريقة فظة أملا فى العثور على وثائق أو أوراق هامة .

وقال لهم أحمد بن بيللا :

— ان الاوراق التى نحملها لاتعدو أن تكون مجرد نصوص المبادئ التى اتفق عليها شعب الجزائر والتى سبق أن نشرناها فى كل مكان . وفى فرنسا بالذات ... انكم لن تجدوا معنا شيئا جديدا ... وثقوا انكم لن تعثروا معنا على ما تطمعون فيه من خطط عسكرية أو مراكز تجمعات فرق جيش التحرير ، لأننا لم نعتد أن نسجل خططنا على الورق ، وانما نرسمها فى رءوسنا ونخفيها فى قلوبنا .

وحاولت السلطات الفرنسية أن تحصل منهم على معلومات عسكرية بشتى وسائل الارهاب ولكن بن بيللا قال لرجالها : « نحن لا نعرف معنى الخوف ... اقتلونا بنظافة ، ولا تكونوا مثل هؤلاء الجنود الذين ظلوا طول الليل يقرعون باب السجن علينا حتى لا ننام .

فنحن لن ننام أبدا طالما فى الجزائر جندى فرنسى واحد . »

ومع شروق الشمس كان العالم اجمع قد سمع حقيقة المؤامرة الدنيئة .

اذاعات العالم كلها أعلنت النبأ الأليم

والصحف كلها نشرت النبأ وصسورا للزعماء في صدر صفحاتها الأولى .

ووكالات الانباء تتناقل أخبار مؤامرة الاختطاف لتعلنها في جميع أرجاء الأرض قاطبة . ملايين البشر ، بل ومئات الملايين سمعت بالنبأ ، فنزل عليها كالصاعقة !

كيف يحدث هذا في عصر المدينيات الحديثة وفي النصف الثاني من القرن العشرين ؟

فرنسا تفاوض الزعماء لكي تدبر لهم مؤامرة دنيئة وتخطفهم .
هكذا دبر الفرنسيون مؤامرتهم دون مراعاة لوازع من عقل أو ضمير ، واقترفوا المخالفات الآتية :

أولا : خرق لقانون الطيران الدولي

ثانيا : عدوان على حرية الملاحة الجوية

ثالثا : سطو على اختصاص شركة الطيران المغربية

رابعا : خرق لمبادئ الانسانية .

خامسا : اعتداء على ضيوف ملك المغرب

سادسا : ارغام قائد الطائرة على خيانة الأمانة

سابعا : خيانة العهد الذي وافقت عليه حكومة فرنسا بالاتصال بالزعماء لمفاوضتهم .

ثامنا : عمل شائن ضيع على فرنسا الفرصة الوحيدة لإيجاد حل لمشكلة الجزائر .

وفي اليوم التالي بادرت الحكومة المصرية الى استنكار الجريمة الشنيعة التي ارتكبتها فرنسا في حق الانسانية جمعاء ، وقالت في بيانها :

« قوبل نبأ الاجراء اتعسفى الذى قامت به السلطات الفرنسية ضد الزعماء الجزائريين بأسف بالغ من الحكومة المصرية فهو فضلا عما يتسم به من مخالفة لقيم الخلقية ، ومبادئ الشرف يطبعه طابع القدر ، الذى يدمغ تصرفات الاستعمار على الدوام . »

لقد قامت السلطات الفرنسية بذلك الاجراء مخالفة لمبادئ القانون الدولى ، ومنتهكة بذلك ما وقعته من اتفاقيات دولية للطيران ، وانه لمن الغريب ان يكون الشعب الفرنسى اول من نادى بحقوق الانسان ، وأن تكون الحكومة الفرنسية اول من يدوس ميثاق حقوق الانسان ويتحداه بهذه الصورة الصارخة

والحكومة المصرية التى تؤمن بحق جميع الشعوب فى حريتها وتقرير مصيرها وتؤمن بحق الشعب الجزائرى الشقيق فى التحرير

والاستقلال ، تعلن استنكارها الباسف لهذا الاسلوب غير الشريف في مقاومة رغبات الشعوب وآمالها . »

* * *

وفي تونس انعقد المؤتمر الثلاثي برغم أنف فرنسا ، وبرغم اعتقالها للزعماء الجزائريين ، وحضره ملك المغرب وبورقيبه رئيس وزراء تونس وعدد من الشخصيات الجزائرية البارزة . وصدر بلاغ مشترك عقب الاجتماع جاء فيه :

— ان تونس ومراكش ستوقعان قريبا على معاهدة للتعاون والتحالف ، وانهما متضامنتان مع الجزائر ويؤيدانها تأييدا مطلقا .

ووقف جى موليه رئيس الوزراء الفرنسي امام الجمعية الوطنية ليقول ان اعتقال الزعماء الجزائريين الخمسة يعد نصرا للسياسة الفرنسية !

وقال : « يكفينا فخرا أننا ألقينا القبض على الرأس الملتهب . »

فهل تعرفون من هو صاحب الرأس الملتهب الذى اثار زهو رئيس وزراء فرنسا ، وكان ورقته الراحلة فى الحصول على ثقة الجمعية الوطنية بوزارته ؟

انه الشاب العربى أحمد بن بيللا !

وقف جى موليه ليعلن أن القبض على أحمد بن بيللا ومحمد خيضر وبقيّة زملائهما ، قد تم بمشاورة بارعة رسمت خطتها بالاتفاق بين السلطات المدنية والعسكرية .

وحدثت أزمة وزارية بسبب هذه الجريمة .

وزير الشؤون المغربية والتونسية فى حكومة فرنسا يستقيل من منصبه لأن الجريمة دبرت من ورائه ، بدون علمه أو موافقته ، ثم استقال وكيل الوزارة المختص احتجاجا على الجريمة .

وتولى رئيس الجمهورية الفرنسية رئاسة مجلس الوزراء الذى اجتمع مرتين فى أقل من ١٢ ساعة لبحث الموقف فى الداخل والخارج . وطلب جى موليه من الجمعية الوطنية أن توافق على برنامجها الذى يضم مسألة الجزائر .

وزعم أن الحكومة الفرنسية ستستمر فى مهمة تهدئة الحالة واصلاح البلاد والسعى الى حل لمشكلة الجزائر بحيث تبقى سيطرة فرنسا على الجزائر مع التأكيد بأن المساواة ستسود جميع المواطنين .

يالها من مهزلة . ! ،

فرنسا تخطف الزعماء ، وتؤكد أنها ستعمل على نشر المساواة بين جميع المواطنين .

وقال يومها ان فرنسا لن تتراجع امام أية قوة او تعصب وانها باقية في الجزائر مهما حدث .

أما عن اعتقال الزعماء الجزائريين فقال ان الحكومة الفرنسية قد « وزنت » عواقب أعمالها .

نعم الحكومة الفرنسية قدرت عواقب أعمالها . لقد نجحت كل النجاح في إثارة الرأي العام ضدها ، في العالم العربي والعالم أجمع . عمل اجرامى استنكرته شعوب الأرض جميعا .

خطف الاحرار الخمسة ألهب الشعور الوطنى وأجج النيران المشتعلة في الجزائر نفسها ؛ وأثار الهياج والاندفاع والسخط الشعبى ، وحب الانتقام في شمالي افريقية كلها ، لقد قدمت فرنسا للثورة الجزائرية أمضى سلاح في أهم مناسبة .

اهتز العالم العربى بجميع أقطاره من المحيط الاطلسى الى الخليج العربى ، وهب يستنكر هذا الاجرام الشنيع .

أثار هذا الحادث شعور الاحتقار عند جميع الشعوب والأجناس لفرنسا وأعمالها التى تعتبر أكبر صدمة للشرف والضمير بل للانسانية عامة . فرنسا بهذا انعمل قد قضت على نفسها أدبيا ومعنويا وخلقيا قبل أن تقضى على نفسها عسكريا .

لقد توافرت لفرنسا بهذا العمل كل الرذائل والمخازى : الجبن - الغباء - السفه - الخيانة - اللوم - الفساد - الخساسة - الدناءة - قلة الحياء - الحمق - الطيش والدعارة الخلقية - الدعارة السياسية والدعارة العسكرية .

قامت مظاهرات في جميع أنحاء المغرب العربى . . . الشعب يعلن عن سخطه وغضبه ، ويتمنى لو شن حربا على قوات فرنسا في الجزائر وتونس ومراكش .

* * *

وفي الأمم المتحدة طلبت مجموعة الدول الآسيوية والافريقية رسميا من داج همرشولد السكرتير العام للأمم المتحدة أن يتدخل بسرعة للافراج عن الزعماء الجزائريين . وقام بهذا المسعى سفير أندونيسيا نيابة عن هذه الدول .

وقال السفير الاندونيسى لهمرشولد ان العمل الذى قامت به فرنسا يعرض سلام العالم لخطر ، ومن الضروري أن تتدخل الأمم المتحدة في الامر .

وتدد محمد يزيد ممثل الجزائر في الأمم المتحدة بعمل فرنسا ، وقال انها نقضت كلمة الشرف باعتقال بن بيللا والزعماء لأن ممثلى فرنسا تكفلوا بسلامة الزعماء الجزائريين في أثناء المحادثات السرية بين فرنسا والجزائر . وهى المحادثات التى جرت منذ أسابيع قليلة .

وقد اهتزت كل الدوائر الدبلوماسية في الامم المتحدة لحادث الاختطاف الوحشي للزعماء الجزائريين .

ووصفت هذه الدوائر الحادث بأنه أسوأ صورة من صور القرصنة ترتكبها دولة تزعم أنها دولة متمدنة .

أما الدوائر المحايدة فقد اعترفت بأن العمل الذي قامت به فرنسا ينتهك حرمة قوانين الطيران المدني الدولي ، كما ينتهك بحرمة حقوق الإنسان حيث استخدمت فرنسا طرق اعصابيات الخارجة على القانون .

وفي العالم العربي عم السخط منذ اللحظات الأولى عندما سمعت الشعوب العربية نبأ اختطاف الخمسة الاحرار المنساضلين . أما في العالم الحر ، فلم يسمع أحد رأى زعماء هذا العالم الحر فيما فعلته فرنسا وهي إحدى أقطابه . خرسست الألسن في لندن ، ونزل الصمت على واشنطن ، فأين كانت حماسة المستر ايدن رئيس وزراء بريطانيا وتلميذه سلوين لويد تجاه احترام الاتفاقات الدوية والمواثيق ؟ ان حماسهما يرتفع فقط عند ما تكون لبريطانيا أو الاستعمار مصلحة .

ولم تكتف فرنسا بما فعلته ، وما يجلل رأسها بالخزي والعار ! بل قدم رئيس الوفد الفرنسي في الامم المتحدة مذكرة الى همرشولد يطلب فيها الى مجلس الامن التدخل في الامر ، واصدار قرار بشأن مسئولية مصر المباشرة عن الثورة في الجزائر .

والملك محمد الخامس ساخط وغاضب . ويثير أزمة مع فرنسا بسبب تدبيرها لحادث الاختطاف . لقد كان الحادث اهانة وجهت الى شرفه ، وطلب الى الفرنسيين الافراج عن الزعماء الخمسة فوراً باعتبارهم ضيوفا على جلالته . وقال ملك مراکش يومها : « ان تصرف فرنسا كان ضربة لشرفي ! » ، وقال : « اسجنوني أنا وابني وافرجوا عن زعماء الجزائر ، لأنهم وثقوا بكلمتي ! »

واجتاحت شمالي افريقية موجة طاغية من الاعمال الانتقامية ضد فرنسا . فهاجت الجماهير الثائرة ، وهاجمت الاحياء الفرنسية في المدن الكبرى ، وراحت تفتك بكل من يصادفها من المستعمرين . ولجأت العائلات الفرنسية في مراکش الى ثكنات الاحتلال . وامتدت الثورة ونيرانها الى كل بقاع المغرب العربي ، وتأكدت وحدة الكفاح كما لم تتأكد من قبل .

وراحت الحكومات العربية تبحث الوسائل الكفيلة بتقديم المساعدات فوراً للشعب الجزائري .

وعم اضراب شامل في الوطن العربي الكبير ، الشعوب العربية تستنكر ما حدث والحكومات تحتج على اعتقال فرنسا للزعماء الاحرار ، وطالبت الامم المتحدة بالتدخل لوقف مذابح الجزائر .

وفي هذا اليوم توقفت القطارات والسيارات عن العمل . تعطلت المصالح والمدارس والمصانع ووسائل النقل ، وأغلقت المحال أبوابها احتجاجا على العدوان الفرنسي على الاحرار في الجزائر والمغرب العربي .

شهد الشرق العربي يوم ٢٨ من أكتوبر أدوع اضراب في تاريخه . كان رمزا في الوطن العربي على يقظة القومية العربية ، واتساع مداها ، كان دليلا على وحدة الآمال والآلام في أوطان العروبة ، كان استنكارا أقوى من الحديد والنار للطغيان الفرنسي ، وانتصارا أقوى من أية قوة لنضال الجزائر الحرة .

انتظمت مواكب شعوب العرب في عواصم بلادهم ، ساروا في مظاهرات ضخمة ليجتمعوا في ساحات مجالسهم النيسابية ، وخطب أكثر من زعيم عربي . قالوا ان الشعوب العربية التي ذقت طعم الحرية لن تترك المغرب العربي فريسة لفرنسا الظالمة . قالوا ان اعتقال الزعماء الجزائريين الخمسة بن يخمد ثورة المغرب ، فهي ثورة تبعث في النفوس نارا تدفعها للعزة والحرية .

وطالبت الهيئات في كل بلد عربي بمقاطعة فرنسا . لم تكن شعوب الشرق العربي وهي تقوم بأدوع اضراب وأعظم مظهر لتضامنها تدرى أن مؤامرة خطف بن بيللا وزملائه ليست الا مقدمة لمؤامرة أكثر غسدا وخسة ودناءة ستحدث فصولها في اليوم التالي لهذا الاضراب . . . بل ظهرت بوادرها عند ما أُنذرت الولايات المتحدة رعاياها في مصر وسورية والاردن والعراق ولبنان بمفادرة هذه البلاد فورا .

بن بيللا وزملاؤه في السجن . في انتظار المحاكمة . . . فرنسا تفكر كيف تحاكمهم . . . وهجمات المجاهدين الجزائريين تشستد . وتشهد القوات الفرنسية أكبر هجوم مسلح ضدها . والعالم الحر أمام أكبر عملية قرصنة في العصر الحديث ساكن لا يتحرك ، لان أساطيله كانت تمخر المباب في البحار والمحيطات متجهة الى مصر !

أحمد بن بيللا... الثائر الأول

أحمد بن بيللا أسير في السجن يعاني آلاما في صمت مرير . هذه الآلام ليس مصدرها انه بين جدران زنزانة ، وتكن مصدرها ان قضية بلاده تعثرت وتنكبت الطريق . فها هو الاستعمار يعرقل جهادهم ، انه هو والزعماء الذين ذهبوا للتفاوض في تونس مكبلون الآن بالقيود ، وينامون في حجرات مظلمة ، ويعذبون الى أن تتم محاكمتهم عما قريب .

خطة بارعة متقنة ، تفنن فيها الاستعمار ورسم خيوطها .

عندما فشلت في مواجهة واقعه المرير في الشرق العربي لجأ الى حيل دنيئة ومؤامرات تعبر عن الغدر والخسة والدناءة .

فرنسا التي بدأت المفاوضات منذ شهور مع زعماء الجزائر والتي رتبت بمعرفتها مؤتمر تونس ، واتخذت تدابير واسعة النطاق لاشتراك أكبر عدد من زعماء جبهة التحرير في هذه المحادثات تخطط الزعماء وترميهم في السجن .

أثبتت فرنسا انها لم تكن في وقت من الاوقات جادة في ادعائها الرغبة في الوصول الى حل سلمي عادل لقضية الجزائر ، كما أعطت الدليل القاطع على انها لا تقيم وزنا لاستقلال مراكش أو تونس ، بل انها مستعدة لتعيب بهذا الاستقلال لأوهي سبب وفي أية فرصة تسنح لها . فلم تحترم فرنسا ضيافة ملك مراكش للمجاهدين ولا ضيافة الرئيس التونسي لهم .

نعم . . فرنسا تريد أية فرصة للانتقام من زعماء الجزائر، وللانتقام من الذين يساعدون الزعماء من أجل تحرير الجزائر .

ولنعد الى الحلف أدراجا قليلة . . .

الجو مشحون بشتى الانفعالات، والسماء ملبدة بغيوم تنذر بعواصف شتى ، والعالم يجري نحو الخطر بأنفاس لاهثة !

كل هذا حدث نتيجة لحق مسلوب يعود لصاحبه .

ففي ٢٦ من يوليو عام ١٩٥٦ أعلن الرئيس جمال عبد الناصر في الاسكندرية تأميم شركة قناة السويس بعد أن رفض الغرب تمويل السد العالي . . .

ردت القناة لأبناء الذين حفروها بعرقهم وبدمائهم ، ودفن في رمالها ١٢٠ ألفا من الآباء والأجداد .

انها الضربة التي ترنح لها الاستعمار من هول المباغتة .
آخر شيء كان يدور بخلدن أن يقدم عبد الناصر على تأمين شركة قناة السويس .

بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة واسرائيل ، والدول التي تسير في ركاب الغرب جميعا أصابها الدوار . وملاء الحقد والبغضاء قلوب الشركاء وراحوا يجتمعون في السر والعلانية .

وراحوا في مؤتمر لندن وغيره من الاجتماعات يتدبرون الامر . واستقر رأيهم على شيء .

عقدوا العزم على التخلص من ناصر . والهجوم على مصر للقضاء عليه ، فمصر تساعد الجزائر ، وتقف لاسرائيل لترصد بها الدوائر .

لقد كان جى موليه يقول : «اننا نريد أن نهزم الجزائر في مصر !» ونكهرب الجو العالمى ، توطئة لتنفيذ مؤامرات دبرت في الخفاء .

أعلنت فرنسا في الوقت الذي تتحرك فيه أساطيلها هي وبريطانيا عرض البحار مقتربة من مصر ، أعلنت استعدادها للوصول الى تسوية لقضية الجزائر .

وأعلنت كذلك بريطانيا والولايات المتحدة استعدادهما لتسوية أزمة قناة السويس بالطرق السلمية في اجتماع يعقد يوم ٢٩ من أكتوبر عام ١٩٥٦ في جنيف .

ولم تشرق شمس ٢٩ من أكتوبر ، الا وكانت القوات الاسرائيلية تزحف عبر الحدود في سيناء ، واشتبكت مع القوات المصرية على طول الحدود .

ومنذ اللحظات الاولى لقنت القوات المصرية اسرائيل درسا لن تنساه وراحت الحكومة المصرية تدرس الموقف بدقة بالغة : كيف تقدم اسرائيل على المغامرة بحياتها فتشتبك بجيشها مع القوات المصرية اشتباكا مسلحا مباشرا ، وعلى طول الحدود ؟

ولماذا اختارت اسرائيل هذا الوقت بالذات لتتحرش بنا ؟ ولماذا أقدمت هذه المرة على العدوان وبهذه الصورة ؟

وعلى الفور صدرت الاوامر الى الجيش بالتحرك الى سيناء والزحف الى قل أبيب عاصمة اسرائيل الدخيلة !

هذه المرة لا بد من ابادة اسرائيل :

وبدأت في الأفق تلوح بوادر جديدة

لم يمض أربع وعشرون ساعة على العدوان الصهيونى حتى كانت بريطانيا وفرنسا توجهان انذارا الى الحكومة المصرية !

انذارا بأن القوات الانجليزية والفرنسية ستحتل « مؤقتا » مواقع

رئيسية فى كل من بورسعيد والاسماعيلية والسويس . وطلبنا من الحكومة المصرية واسرائيل سحب قوات كل منهما الى مسافة عشرة أميال غرب القناة بالنسبة لمصر وشرق القناة بالنسبة لاسرائيل .

هذا مع وقف جميع الاعمال الحربية بحرا وجوا وبراً - والمطلوب ارسال الرد خلال ١٢ ساعة ، والا اضطرت الدولتان الى استخدام القوات اللازمة لتنفيذ شروط الانذار .

وكان رد مصر هو رفض الانذار .

وكانت انجلترا وفرنسا تعرفان مقدما رد مصر هذا ، لان الانذار صيغ بطريقة معينة لترفضه مصر .

وفى الحال بدأ تنفيذ خطة العدوان التى دبرت فى الظلام خلال اجتماعات طويلة .

كانت الخطة تتكون من ثلاث نقاط :

أولا : زحف اسرائيل على سسيناء صبيحة يوم ٢٩ من أكتوبر والاشتباك مع القوات المصرية ، وكان الغرض من هذا الزحف الصهيونى هو استدراج الجيش المصرى كله الى شبه جزيرة سيناء فى العراق - تاركاً البلاد دون جيش يدافع عنها .

ثانيا : غزو مصر من الجو بالآلاف الطائرات من أحدث طراز مخصص لقوات حلف الاطلنطى وتعطيل عمليات القوات الجوية المصرية مع ضرب الجيش المصرى من الخلف اذا ما حاول الانسحاب من سيناء ، والغرض من هذا أن تكون مصر دون جيش يدافع عنها .

ثالثا : تنزل القوات المعتدية من انجلترا وفرنسا على أرض مصر من جهة بورسعيد والسويس ، والالتقاء فى الاسماعيلية مع ملاحظة تحطيم محطة اذاعة صوت العرب حتى تكون آمنة مطمئنة .

هذه هى المراحل الثلاث لاحتلال مصر .

وكان مقدرا لكل خطوة منها ٢٤ ساعة ، وهذا فى نظر المعتدين وقت كاف لاتمام الخطة قبل أن يفيق العالم ، واذا احتاج الامر الى يوم آخر لم يكن فى هذا كبير بأس ، وخاصة أن أمريكا مشغولة ومنهمكة فى تطاحن الاحزاب والانتخابات والامم المتحدة « حبلها طويل » والاتحاد السوفيتى مشغول بالثورة فى المجر .

هكذا حسب فنانو المؤامرات وتجارب الحروب حسابهم فى بريطانيا وفرنسا . وأقدموا على تنفيذ جريمتهم ومغامرتهم الحمقاء التى سبق تديرها بعد تأميم قناة السويس .

وأصدرت القيادة العامة الواعية أوامرها الى الجيش المنتصر بالانسحاب من سيناء مع ترك بعض الكتائب لتغطية الانسحاب والتراجع للدفاع عن المدن ، حتى لا يتعرض الجيش للضرب من الخلف .

وكأن قرار الانسحاب حكيما ، مما أفسد على العدو خطته •
وأقسم المعتدون ينفذون باقى المؤامرة، وتقدمت قواتهم نحو بورسعيد،
وتلقى المعتدون هناك على يد الجيش والشعب أروع درس يشهد به التاريخ
الحديث •

هذه لمحة عن العدوان الثلاثى على مصر فى نهاية أكتوبر عام ١٩٥٦
لاتصاله الوثيق بقضية الجزائر والحرب الدائرة على أرضها بين الإبطال
المجاهدين ، وقوات الاحتلال الفاشية •

وذهبت أوهم جى موليه رئيس وزراء فرنسا أدراج الرياح !
كان يتصور وأهما انه سيحقق آماله ، فقد أعلن عن انتصاره على
مصر وتحطيمها سيفقد المجاهدين الساعد الايمن فى معركتهم مما يجعلهم
يستسلمون دون أدنى مقاومة •

ولكن محاولته باءت بالفشل المبين !
وهجمات المناضلين تشتد على المعسكرات الفرنسية بالجزائر • لقد
صمموا على اذلال فرنسا واذلال قواتها ، ان كل انتصار على فرنسا فى
الجزائر إنما هو انتصار لمصر ، حتى لا تتمكن من اشراك جيشها ضد مصر
فى هذا العدوان الاثيم •

وأحمد بن بيللا فى سجنه يتابع تطورات الموقف بقلبه وعقله فى
مصر والجزائر •

ومن وراء قضبان السجن كانت تصدر أوامره بتشديد الهجمات على
قوات الاحتلال الفرنسية لأجنائها ، وخاب فال جى موليه •
لم ينتصر على مصر ، ولم ينتصر على الثورة فى الجزائر !

جى موليه هذا وقف أمام الجمعية الوطنية فى فرنسا ليقول «يكفىنا
مخرا اننا القينا القبض على بن بيللا الرأس الملتهب » ولكن القبض على
بن بيللا وزملائه لم يؤثر فى الثورة الجزائرية • كانت فرنسا تعتقد أن أحمد
بن بيللا وحده هو الثورة فى الجزائر، ظنت أنه العقل المدبر وراء الثورة،
ومحمد خيضر هو العقل السياسى لها • وبالنقض عليهما وعلى زملائهما
سوف تضيق الثورة الجزائرية فى متاحف الخلاف والانتكاس •

ولم تدرك فرنسا ان تنظيم جبهة التحرير كان أقوى من ألعبيها
وحيلها وقرصنتها •

فى الليلة التى ألقى فيها القبض على الزعماء الخمسة أذاعت قيادة
جيش التحرير بيانا هاما • واختارت قائدا جديدا لجبهة التحرير •

كان التنظيم الثورى الجزائرى مثيرا للغاية ، فى الحال يتم اختيار
القائد الاحتياطى لكل قائد عند حتمية الظروف الطارئة •

فى الليلة نفسها بعد خطف الزعماء ، عقدت عدة اجتماعات سريعة،

اجتماعات لمجلس الحرب في قلب الجزائر نفسها ، واجتماعات بين الزعماء السياسيين أعضاء جبهة التحرير ، وتقرر اختيار من يحل مكان محمد خيضر في تحمل أعباء مسئولياته ، وتقرر أيضا اختيار مندوب جديد ليمثل جبهة التحرير في الولايات المتحدة في المكان الذي كان يشغله حسين آية أحمد .

وفي الليلة نفسها كان محمد يزيد يستقل الطائرة الى نيويورك . ووصل اليها بعد ٣٦ ساعة من وقوع أحمد بن بيللا وحسين آية أحمد وباقي الزملاء في قبضة الفرنسيين .

اختطاف بن بيللا وزملائه كان عاملا من العوامل التي ألهمت حماس المجاهدين ودفعتهم الى مزيد من التضحية والجهاد في سبيل الرسالة التي يحملونها نيابة عن شعب الجزائر كله .

لن تتحقق أوهام فرنسا ! وستشتعل حرب ضروس لن يطفئها الا استقلال الجزائر .

لقد قالها أحمد بن بيللا وجنود فرنسا يضعون الاغلال في يده بمطار الجزائر : « لا شيء سيغير ! » وبالفعل لم يتغير شيء في الجزائر ، بل ازدادت النيران اشتعالا .

وراحت فرنسا تفكر في الطريقة التي تقضى بها على الزعماء الذين تفخر بأنها اختطفتهم .

انها في حيرة ، كيف تقدمهم للمحاكمة ؟ وما نوع المحكمة التي سيحاكم أمامها الزعماء ؟ هل تكون مدنية أو عسكرية ؟

الرأي الراجح أن تكون المحاكمة عسكرية طبقا للقانون والسلطات الاستثنائية التي صلب عليها البرلمان الفرنسي في مارس عام ١٩٥٦ .

واذا كانت السلطات الفرنسية قد قررت نوع المحكمة ، فماذا عن الاتهامات التي ستتوجه الى الرأس الذي ألهب النيران في الجزائر وفي فرنسا نفسها والى زملائه الاربعة أيضا ؟

ووجهت الى الزعماء اتهامات تقضى بمحاكمتهم وفق المادة ٧٦ من القانون الجنائي . وهي تنص على عقوبة الاعدام لكل فرنسي اشترك متعمدا في عمل يهدف الى زعزعة القوة المعنوية في الجيش أو في الأمة للاضرار بالدفاع الوطني .

وعرف أحمد بن بيللا نوايا فرنسا ، عرف أنها ستقوم باعدامه هو وزملاؤه كان يعرف نواياها منذ زمن قديم . ففرنسا كلها تعرف بن بيللا الذي دوخها ودوخ قواتها في الجزائر .

وكل شخص في فرنسا يعرف من أحمد بن بيللا .

فرنسا التي أعلنت عن استعدادها لدفع مليون فرنك لمن يقبض على أحمد بن بيللا حيا أو ميتا .

فرنسا التي جندت كل امكانياتها ومخابراتها لاغتيااله فدبرت له
عددا من المؤامرات .

فرنسا التي تخسر كل يوم ملايين الفرنكات وعشرات الجنود تتمنى
لو وقع أحمد بن بيللا قائد جيش التحرير الجزائري فى يدها لتذيقه
ما أذاقها من عذاب !

وما هو ذا قد وقع فى يدها هو وأربعة من زملائه المجاهدين بعد أن
اختطفتهم خطفا فى أدنا عملية قرصنة فى العصر الحديث .
فمن هو أحمد بن بيللا ؟

* * *

السكون يخيم على قرية مارينا الصغيرة على الحدود بين الجزائر
والمغرب . والقمر يبرز فى فجر ذلك اليوم فى عام ١٩١٩ ، والحرب
العالمية الاولى تضع أوزارها لتنتشر مبادئ السلام من جديد فى عالم
طحنته الحروب ودمرت معالم المدنية فيه . وصوت مؤذن ينادى يدعو
المسلمين للصلاة : كانت امرأة تعاني آلام الوضع . وراحت تبتهل الى الله
أن ينزل بها اليسر فينطلق المولود دون كبير عناء .

ولم تكن تدري هذه الام وهى تزفر الآلام وصرخات الوضع أن طفلها
الذى سيبرز نجمه بعد لحظات معدودة سيكون له شأن كبير .

ومرت لحظات . . . وظهر المولود الى الوجود . . . وحانت من الأم التفاتة
الى وليدها الصغير وهو يركل الهواء بقدميه ويديه . . . كان صغيرا وضئلا
واحتضنته أمه وكأنها تشفق عليه مما ينتظره . هذا الطفل الوليد
ستوضع على كتفيه أعباء أمة بأسرها ، سوف يشب عن الطوق فىرى
الاستعمار يندس بلاده بل يزعم أنها جزء من فرنسا . وسيحارب مع
فرنسا . ثم ينقلب ضدها لتحرير بلاده ، ويدخل السجون ، ويعذب .
وتدبر مؤامرات لاغتيااله ، وتهز قصته الضمير العالمى .

أمه لم تكن تدري ، ولعلها بقلب الام واحساسها كانت تشعر
بغموض يحيط به منذ مولده . وراحت الام تتمتم بدعوات الى الله أن
يحرس ابنها محمدا أحمد بن بيللا وأن يطيل عمره وأن يرعاه على مدى
الايام .

ونما محمد أحمد بن بيللا وترعرع . . . والمستعمر يندس بلاده .
كان لا يتماثل للنوم الا اذا حكى له أمه قصة ، وكان يطيب له أن يسمع
منها قصة احتلال الجزائر ، فهى قصة طويلة فيها بطولة وأمجاد وفيها
خزى وعار على فرنسا . ولا بد من الانتقام لشرف الجزائر وأبطالها
الامجاد !

ودخل المدرسة الفرنسية يتلقى فيها علومه . تعلم الفرنسية وعرف
من مدرسيه الفرنسيين ان الجزائر ولاية فرنسية . هكذا أكد له العباقرة
الذين درس عليهم مادة التاريخ : أن الجزائر امتداد لفرنسا عبر البحر

المتوسط . وحنق الطفل محمد أحمد بن بيللا وسخط . وازداد احساسه
سخطا وهو يستمع كل يوم مزيدا من المزايا الاستعمارية التي دخلت ولاية
الجزائر الفرنسية .

ومنذ يومها وهو يلعن فرنسا وينعن عباقرة التاريخ الفرنسيين
المغالطين !

وحاول محمد أن يهتدى الى الحقيقة . . .

حاول أن يعرف من أمه الحقيقة بأبعادها العميقة . . . وتلقى الدروس
الاولى في انوطنية منها وهي تخبره كيف حول الفرنسيون الجزائر الى
ولاية فرنسية لا تتمتع بشيء سوى نهب خيراتها وحرمان الوطنيين من كل
شيء حتى الحياة نفسها .

وبدأت حمم صغيرة تتطاير من التلميذ محمد أحمد بن بيللا ، من
البركان الكامن في أعماقه ، حمم تتطاير منه في نظراته الى القوات الفرنسية
تدنس بلاده ، بل والفرنسيون جميعا ينهبون خيراتها . . . والشعب حوله
. . . كل الشعب بين فقير أو مغرق في الفقر والجوع والمرض .

وتخرج أحمد بن بيللا من المدرسة الثانوية . . .

والسياسة الفرنسية تقضى بتجنيد الجزائريين اجباريا في الجيش
الفرنسي على اعتبار انهم جنود فرنسيون .

وأصبح أحمد بن بيللا جنديا في جيش فرنسا . وصمت يطبق على
شفتيه فلا ينبس ببنت شفه ، وحقد وكراهية تتأصل في نفسه وتغوص
في أعماقه نتيجة لكل شيء . حتى في الجيش كانت التفرقة قائمة بين
الفرنسيين وبين الجزائريين ، امتيازات لابناء فرنسا ومعاملة سيئة للغاية
لابناء الولاية الفرنسية عبر البحر المتوسط .

كان الجندي محمد بن بيللا لا يهتم ما يلاقيه . . . انه يعيش مع
وطنه بكل جوارحه . ويعد نفسه لخوض معركة سسيطول أمدها . . .
معركة ستكون حاسمة .

الحركات والتنظيمات التي رآها تدور في الخفاء في بلاده لا يرضى
عنها كل الرضا ، ان الزعماء في الجمعيات الثورية لا يعجبه سلوكهم ،
ولا طرقهم السلمية في الكفاح للمطالبة بحقوق الجزائر .

انه يرى حوله أعمال الفرنسيين التعسفية ويرى المقاومة السلمية
التي انبرى لها الزعماء السياسيون أمثال الامير خالد والحاج علي عند القادر
ومصالي الحاج والشيخ عبد الحميد بن باديس وفرحات عباس . ولكنه صامت
والصمت الرهيب يلف كيانه أينما ذهب .

ونشب الحرب العالمية الثانية . . . وكان محمد أحمد بن بيللا
برتبة ملازم في الجيش ، وكان لابد أن يخوض المعركة مع فرنسا لانه
فرنسي . . . هكذا تقول فرنسا التي تحارب الآن ضد الفاشية والنازية .
واشترك بن بيللا في الحرب من أجل عالم أفضل كما أعلن بعض

زعماء العالم ، ومنهم فرنسا ، ان الحرب تخاض الآن من أجل القضايا العادلة ، ولكن بن بيللا كان يعد نفسه لمعركة أخرى . . .

واستطاع بشجاعته الخارقة التي تجلت في احدى المعارك الحربية الحاسمة وهي معركة « مونتى كاسينو » أن ينتزع اعجاب القادة الفرنسيين ، لقد عجزت الجيوش الاوروبية أن تبدأ بالهجوم والمغامرة في هذه المعركة ، فما كان منه الا أنه طلب من الفرقة الجزائرية أن تقوم بالهجوم ، استطاع أن ينجح في كسب المعركة مما كان سببا في ترقيته الى رتبة أعلى . ولقد كان سر نجاحه العسكري باعتراف الفرنسيين أنفسهم انه لا يخاف الموت ، بل يريد أن يموت موتا نظيفا في سبيل قضيه عادلة!

وقد وجدت الاحزاب الجزائرية نفسها عاجزة عن أداء رسالتها بعد أن قامت الحرب العالمية ، وذلك بسبب ضعف برامجها الاصلاحية وخداع الاستعمار والحيل السياسية الفرنسية .

وكانت هزيمة فرنسا أمام ألمانيا سببا في تداعى هيبتها في الجزائر وعندما فتحت ألمانيا جبهة ثانية للقتال في قلب أوروبا أسرع الاميرال دارلان والجنرال جيرو من قواد فرنسا في الجزائر الى العمل لحمل المواطنين على الاشتراك في القتال ضد المانيا وحلفائها من دول المحور .

واستغل فرحات عباس هذه الفرصة ، ووجه رسالة الى السلطات الفرنسية وقعها معه زملاؤه ، قال فيها :

« انه يوافق على المساهمة في حرب تشن من أجل تحرير الشعوب ولكن بشرط أن تخاض هذه الحروب بدون تمييز بين جنس وآخر ، وبين دين ودين ، وبشرط ألا تحرم الشعوب من حريتها ومن حقوقها الاولية بالرغم من التضحيات التي تقوم بها والوعود التي تبذل لها وبشرط أن يتم عقد مؤتمر للمنتجين وممثلي جميع الهيئات الاسلامية لوضع نظام سياسى واقتصادى واجتماعى للبلاد »

وتوجه وفد من الوطنيين للتحرى عن رد السلطات الفرنسية . وقال لهم الجنرال جيرو انه يباشر شئون الحرب ولا يعنى بالشئون السياسية

وتمكن الحلفاء من دول المحور في ٨ من نوفمبر عام ١٩٤٢ من انزال قواتهم في الجزائر فوجدوا شعبا ثائرا ضد فرنسا وسياستها ونبذ سياسة الاندماج مع فرنسا وصمم على أن يعيش حرا مستقلا في بلده .

وفي ٣ من فبراير عام ١٩٤٣ اجتمع احرار الجزائر ، وتشاوروا في مستقبل الأمة الجزائرية وخروجها نهائيا من منطقة النفوذ الاستعماري ، وقرروا تقديم بيان الى الحاكم العام الفرنسي . ورفضه هذا الحاكم لانه موجه الى الامة الفرنسية ، والمسئولية في الدول المتحالفة لا الى الادارة الفرنسية فحسب .

مر اسبوع كامل ثم جاء ١٠ من فبراير من عام ١٩٤٣ عندما اجتمع فرحات عباس مع ٢٨ شخصا من المنتخبين، ووقعوا « وثيقة مطالب الشعب الجزائري » وقدموها الى الجنرال ديجول زعيم « الفرنسيين الاحرار » في

ذلك الوقت ، ورفضها . ولكنه أعلن عن برنامج « فيوليت » وبمقتضاه
يعد الجزائريين بعدد من الاصلاحات باعتبارهم فرنسيين واعتبار بلادهم
الجزائر جزءا من فرنسا الى الابد .

ولكن الزعماء لم يرتاحوا لهذه الاصلاحات التي تقضى بهضم حقوق
الجزائر ، وقام فرحات عباس بالاتصال بالعلماء ، كما اتصل بمصالي
الحاج الذي أطلق سراحه في أبريل عام ١٩٤١ وأنشئوا جماعة أصدقاء
البيان والحرية التي ترمى الى انشاء جمهورية مستقلة في الجزائر .

وعلمت السلطات الاستعمارية بهذا التنظيم فقامت بالقاء القبض
على فرحات عباس وزجت به في السجن وأرسلت المصالي الى منفاه في
الصحراء .

وشعب الجزائر يغلي غليانا على أثر وقوع هذه الحوادث ، وينذر
بانفجار شديد .

وأحمد بن بيللا نائر وبدخله مرجل يغلي . . . ولكن في الوقت الحالى
لا يفيد الانفجار . . .

وخرج فرحات عباس من السجن وعاد رجال أنصار البيان والحرية
الى العمل والاستعداد لخوض المعارك السياسية عند ما تضع الحرب
العالمية الثانية أوزارها .

* * *

وغى ٨ من مايو عام ١٩٤٥ احتفل العالم الغربى بعقد الهدنة
مع ألمانيا ، وشبّرك الشعب الجزائري احتفال العالم بانتصار الحرية على
الاضطهاد والاستعمار . ألم يساهم الشعب الجزائري مساهمة فعالة في
ارسائه وتحقيقه حيث كان يعتقد انه سيصيب منه مغنما ، وخاصة بعد
أن وقف يخارب مع فرنسا وحلفائها : كان يظن أنه اذا انتصرت فرنسا
فانها سوف توفى بتعهداتها لشعب الجزائر ، التي قطعتها على نفسها ابان
الحرب . كان يظن ان فرنسا سترد اليه الجميل بعد أن ساندتها ووقف
معه في محنتها .

وخرج الشعب الجزائري في مظاهرة سلمية كبرى . وانطلق
الرصاص من القوات الفرنسية يحصد الشعب المسالم ، وسقط يومها ٤٥
الف مواطن ! أكبر مجزرة بشرية عرفها التاريخ ، تركبها دولة « الحرية
والاخوان والمساواة ! »

هكذا أرادت فرنسا : قتلت ٤٥ ألفا من الابرياء الذين نصرروها في
حربها ، ليكون ذلك درسا قاسيا للشعب لكي لا يثور في وجه فرنسا .

ولم تكتف فرنسا بهذا القتل وحده ، بل قامت بالقاء القبض على
حوالى خمسة آلاف مواطن من نخبة الأئمة ومفكريها ، وأصدرت أحكامها
على ألف وثلثمائة رجل منهم ٩٩ شخصا بالاعدام !

فرنسا أرادت أن تلقن الجزائريين درسا يخمد صوتهم الى الابد !

هذه المذبحة كانت ناقوس الخطر الذي دق عاليا في جميع أرجاء الجزائر .

بركان هائل انفجر في قلوب الجزائريين . . .

مذبحة « ستيف » هذه حددت اتجاه محمد أحمد بن بيللا ، ورساله حياته .

آمن أحمد بن بيللا أنه لا بد من ثورة مسلحة للقضاء على الاستعمار المسلح ، لا بد من ثورة تستمر ولا تتوقف حتى يتم القضاء على الاستعمار . وبدأ يقدر لها عشرة أعوام طويلة .

أحمد بن بيللا يحلم بثورة من الشعب وبالشعب وللشعب . . ثورة عامة مسلحة لا يستغلها زعيم ولا تضللها طبقة أو جماعة . . ثورة يؤمن بها الشعب ويحققها أو يفنى في سبيلها . .

لم يتحقق ما أرادته فرنسا .

لقد ازداد الشعب اصرارا على الرغبة في الحياة والحرية وفقد الشباب إيمانه بجدوى الحركات والأحزاب السياسية وراح يستجمع قواه في حركة بعيدة عن العيون أطلق عليها اسم «المنظمة السرية» تهدف إلى اقناع الناس بالكفاح المسلح للحصول على الحقوق ، ورد العدوان بالعدوان . وانطلق الشباب : بن بيللا وبوضياف وخيضر ويوسف وباجي مختار وعمران وعمران وعبدان رمضان وبن بولعيد والعربي بن مهيدي ورابح بيطاط ومحساس ودبدوش مراد وغيرهم ، انطلقوا يجمعون المجاهدين والأنصار .

وفرنسا لا تدري . خيل لها أنها تنفست الصعداء عندما أمسكت مفاتيح الزنازين ، وقالت انها ستبدأ الآن العمل في هدوء .

وأعلنت على الملأ دستورا جديدا يصلح الأمور ويعيدها إلى الصراط المستقيم ، ويحيل الجزائر إلى جنة وارفة الظلال !

ونص دستور المستعمر على تكوين برلمان من ٢١٠ نواب نصفهم يمثل مليون فرنسي والباقي يمثلون ١٢ مليون جزائري !

ونشطت فرنسا قبل أن يفلت من يدها الزمام ، فقامت بطبخ وتزوير انتخابات النواب الجزائريين . ودخلت البنادق والمسدسات والمدافع الرشاشة لتدلى بصوتها في اللجان الانتخابية . ومات عدد كبير في مجازر أخرى دامية ، وأسفرت هذه الانتخابات عن فوز ٦٠ فرنسيا و ٥٦ من الجزائريين معظمهم من عملاء فرنسا .

بدأ بن بيللا يعد جناحا ثوريا قويا في حزب الشعب الجزائري وبدأ يقضي ليلاته الطويلة في دراسة خريطة الجزائر واستراتيجيتها أو في اجتماعات سرية في الكهوف والسرديب : اعدادا للثورة المسلحة التي يريد شباب الجزائر أن يعدوا أنفسهم لها .

وصدر قرار العفو في ١٦ من مارس عام ١٩٤٦ ، أفرج عن فرحات

عباس وأصدقائه فخرجوا من السجن ليستأنفوا العمل ببرامج « الوثيقة » ولكن في شسكل حزب جديد هو الاتحاد الديمقراطي لوثيقة المطالب الجزائرية .

ومضى وقت غير طويل عندما انبثقت من قلب حزب الشعب الجزائري الحركة المناصرة للحريات الديمقراطية وعقد أول مؤتمر لها في نوفمبر عام ١٩٤٧ .

وكلف أحمد بن بيللا من رئاسة الحزب الشعبى بتنظيم جهاز سرى عسكرى . طلب اليه أن يعد هذا الجهاز بحيث يكون مستعدا فى كل لحظة للمعركة الفاصلة .

وفى خلال أسبوع استطاع أحمد بن بيللا أن يجمع حوله ما يزيد عن ثلاثة آلاف فدائي أشرف على اختيار كل واحد منهم ، وكان من الضرورى توافر شروط خاصة ، يجب أن يكون الفدائي مدربا عسكريا ، وأن يكون غير متزوج وان يقبل التضحية من أجل معركة الوطن الكبرى .

ويحكى بن بيللا قصة الثورة فيقول :

« ووضعت الخطة . . كان كل فدائي يظل منخرطا فى قواتنا لمدة ستة أشهر كاملة وبعدها يحال الى قواتنا الاحتياطية . . على أن يبقى مستعدا تحت الطلب فى أية لحظة . . »

والثابت أن رجال المخابرات الفرنسية لم يعرفوا شيئا عن هذا الجيش السرى مدة ثلاث سنوات كاملة . .

وحدث فى الجزائر سلسلة من الحوادث العنيفة التى كانت التمهيد الحقيقى والعمل للثورة المسلحة ضد الاستعمار الفرنسى .

ولم يكن حادث الهجوم على مركز بريد وهران الا حلقة فى هذه السلسلة من الحوادث . كان هذا فى يوم من أيام ابريل عام ١٩٤٩ . كان كل شىء هادئا فى مدينة وهران فى ذلك اليوم ، وقامت الجماعة المسلحة الصغيرة من الجزائريين بمداهمة مركز البريد بطريقة سريعة خاطفة ، واستولت على مبلغ « ثلاثة ملايين فرنك » ولأذت بالفرار فى احدى السيارات . وضعت هذه الأموال فى داخل سيارة المجاهد « محمد خيضر » - واستطاعت أن تمر وسط قوات البوليس ، ونقط المراقبة التى تبحث وتفتش فى كل سيارة وذلك لأن سيارة « خيضر » كانت ذات حصانة برلمانية ، اذ كان خيضر وقتها عضوا بالجمعية الوطنية الفرنسية .

كان مبنى البريد هدفا لأول عمل مسلح للجماعة الثورية الوليدة . وكان القصد من ذلك هو الاستيلاء على بعض الاموال التى هى فى الواقع أموال الشعب الجزائري - لتمويل الحركة التحريرية الثورية . أما بطل هذه الحادثة فقد كان أحمد بن بيللا .

وذات يوم فى عام ١٩٥٠ وقعت حادثة نبهت الاذهان الى قوات أحمد بن بيللا الفدائية ، وكانت مفاجأة مذهلة اهتز لها جهاز المكتب الثانى

الفرنسي كله ، وانتشرت قوات البوليس محاولة القاء القبض على
الفدائيين ...

وكان أحمد بن بيللا قائد هذا الجيش . وقد ألقى الفرنسيون القبض
على المجاهد - الأول - أحمد بن بيللا - ومعه أكثر من ٨٥٠ من المجاهدين
الفدائيين - أما بقية زملائه أعضاء هيئة القيادة فلم يعرف الفرنسيون
عنهم شيئا .

وهكذا بقي أحمد بن بيللا مع بعض زملائه أمثال محمد خيضر ،
وعيان رمضان ، وعلى محساس من شباب المنظمة السرية - بقوا في السجن
سنتين كاملتين ، وحاول الفرنسيون أن يحصلوا منهم على أى اعتراف
كامل . ولكن جميع محاولاتهم باءت بالفشل ، وصمم أحمد بن بيللا على
الصمت . حتى الموت .

وفي السجن استعمل الفرنسيون جميع أدوات التعذيب ووسائله
الوحشية التي سمع الناس عنها في القرون الوسطى ...

حدث مرة أن انهال عليه أحد الجنود ضربا بعصا غليظة - وهو مكبل
بالأغلال - وكانت الضربات تقع على رأسه كالمطارق حتى أدمته ، فوقع على
جنبه الأيسر ، ومع ذلك استمر الجندي يضربه على رأسه حتى أصابت
أحدى الضربات أذنه اليمنى فأفقدتها السمع الى الأبد !

وقضى أحمد بن بيللا عاما كاملا في هذا العذاب - وسنحت له أكثر
من فرصة للفرار من هذا السجن وهذا العذاب . ولكنه قرر أن ينتظر حتى
نهاية التحقيق والمحاكمة : أراد أن يتحدى فرنسا . وفي اليوم التالي
(١٦/٣/١٩٥٢) لصدور الحكم ضده - بالسجن المؤبد مع الأشغال
الشاقة - انتهر فرصة نقله من سجن لآخر ، وغافل الحراس ولاذ بالفرار ،
حيث عبر الحدود بطريقة سرية ، أدت فيها منظمات جيش التحرير دورا
هاما ...

وخرج أحمد بن بيللا ليجد « الحزب » منقسما على نفسه ، وفي مكان
سرى بالجزائر جمع بعض زعماء الحزب في هيئة مؤتمر ، وقرروا جميعا ،
في هذا المؤتمر ، وضع جميع امكانيات الحزب تحت تصرف « جيش
التحرير » .

وقد ساعد الموقف الدولي في الاسهام لظهور الكيان الجزائري الى
حيز الوجود . ففي ذلك الوقت أثرت في المحافل الدولية - مشكلة
استقلال « ليبيا » التي كانت ترضخ حينئذ للاستعمار الإيطالي . فوقفت
فرنسا تعارض حرية الشعب الشقيق ، وصالت وجالت وراحت تضغط
وتهدد ، وتقدم وهما زائفا تتمسك به قائلة : كيف تترك العازل الطبيعي
بين المشرق العربي والمغرب العربي فارغا تمتد منه الأيدي ؟

وهال هذا الموقف الشعب الجزائري ، فهب يطالب زعماءه باثبات
الكيان ، وخرج رجال السياسة وزعماء الأحزاب الى النور ، عندما كونوا
جبهة تضم الكل وتمثل المجموع وأسموها « الجبهة الجزائرية » - وشملت

الجبهة بقايا حركة انتصار الديمقراطية برياسة مصالى الحاج ، وانضم إليها - كذلك - فرحات عباس بأعضاء حزب « الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري » وانضم أشخاص آخرون ممن لمعت أسمائهم فيما بعد .

و درست الجبهة امكانياتها التي تركز على ارادة من حديد وتصميم على بلوغ الهدف مهما كان الثمن باهظا ووجدت أنها تستطيع أن تمارس قوتها في الميدان ، وقامت بخطوة كانت الأولى والأخيرة ، فسرعان ما دب الخلاف الحاد بين الاشقاء ، وتصدعت الجبهة وتفككت وأوصالها بعد أن وجهت نداء للشعب بالتبرع للاشقاء - المجاهدين العرب - الذين سلبت الصهيونية ماء الحياة منهم في فلسطين ، واستجاب الشعب للنداء - وتدفقت الأموال من كل الجيوب ، ولكن المشكلة التي واجهت الجبهة هي : من الذي له الحق في تقديم المبالغ للفلسطينيين ؟ مما أدى بقيام النزاع بينهم .

ووصل بن بيللا - وخيضر - وحسين آية أحمد ، وعلى محسساس وغيرهم الى قاعدة العروبة وقلبها النابض الى القاهرة . ولجأ بعض الشباب الآخرين أمثال يوسف زيفون - وديد روش مراد - كريم بلقاسم - عمران . . وكثيرون غيرهم الى الجبال يتخذون منها جبهة لقتال المستعمرين . وكانت بداية مرحلة جديدة .

طرق أحمد بن بيللا وزملاؤه في القاهرة الأبواب طالبين مساعدة حركة الكفاح بالجزائر ، كما عمد كريم بلقاسم ورفاقه بالجبال الى توجيه النداء لكل الاتجاهات والحركات السياسية في الداخل لبدء حركة النضال المسلح ضد الغاصبين .

استجابت القاهرة - معقل الحرية - لنداء الاشقاء الاحرار وفتحت كل الابواب لبن بيللا وزملائه الذين استطاعوا أن يكونوا على اتصال بالذين فروا الى الجبال ، ودفعت هذه الأشياء الدماء حارة وناضجة في العروق .

دب الخلاف بين مصالى الحاج واللجنة المركزية لحزبه - عام ١٩٥٢ - فقد أراد مصالى الحاج أن ينفرد بالسلطة ، وكانت اللجنة المركزية تسعى الى اقرار مبدأ القيادة الجماعية للحزب بقصد توحيد الصفوف - وأصاب هذا الخلاف الشبان الثوريين في المنظمة السرية بخيبة أمل مريرة مما كان له أثر سييء على فعالية الكفاح . ولقد كان الشبان الثوريون يعارضون دكتاتورية مصالى الحاج - ويعيبون أيضا على اللجنة المركزية في أن تحقيق الوحدة الوطنية لا بد أن يسبق بدء الكفاح المسلح ، وكانوا يرون العكس من ذلك أي ان الكفاح المسلح سيكون عاملا في توحيد صفوف الامة والمحور الذي يلتف حوله الشعب الجزائري .

وعندما استفحل الخلاف بين مصالى الحاج واللجنة المركزية خرج تسعة من الشبان أعضاء اللجنة الثورية وألفوا « اللجنة الثورية للوحدة والعمل » - وكان أعضاء اللجنة هم : أحمد بن بيللا - محمد خيضر -

رابع بيطاط - عميروش مراد - مصطفى بن بلعيد - كريم بلقاسم -
محمد العربي بن مهيدي - محمد بوضياف - حسين آية أحمد ...

وهذه اللجنة هي التي تحولت فيما بعد الى جبهة التحرير الوطني
الجزائرية .

وبدا شباب الاحزاب يطالب زعماءه بالكفاح المسلح استجابة
للموقف الراهن . وبهرت المطالب الجديدة هذه أنفاس السياسيين
الذين بوغتوا بالاسلوب الجديد . وبدأت الرجعية تتخذ موقفا ، فقد
خافت من النتائج الخطيرة ، وراح عملاء الاستعمار يسوفون ويماطلون
وادعوا ان الوقت لم يحن بالنسبة للجزائر .

عام ضاع من عمر الشباب ومن عمر الأمة الجزائرية قبل ان
تتكون « اللجنة الثورية للاتحاد والعمل » - وبدعوا على الفور في البحث
والاتصال واعداد أجهزة الثورة لليوم الموعد ...

وعقدت اللجنة سلسلة من الاجتماعات لاتخاذ الاجراءات
والاستعدادات الكفيلة باستمرار الثورة ، والكفاح الذي لا يتوقف عند
حد . ومرت أحداث بلورت جميع الخلايا الثورية والافكار المنطلقة ،
تلعن الاستعمار ، وتلعن أسلوبه في الحياة . لقد كانت مذبحة «ستيف»
في عام ١٩٤٥ التي سالت فيها دماء ٥٠ ألف شهيد جزائري في يوم
واحد ، كفيلة باذكاء نيران الألم والأسى في قواد كل مواطن جزائري .
لقد ظن الاستعمار ان هذه المذبحة أخمدت روح المقاومة لدى الشعب
الجزائري ، وان نيران الثورة قد انطفأت الى الأبد . ففرنسا قد خرجت
من الحرب العالمية الثانية ضعيفة هزيلة ، ولكنها أرادت ان تثبت
لشعب الجزائري أنها لا تزال تمتلك من القوة ما تستطيع به ان تبطش
حين تريد البطش ، وأرادت ان تعلم الشعب ألا يثور في وجه فرنسا الى
الأبد . أرادت ان تجبر الشعب الجزائري ان يدفع الثمن باهظا ، لأنه
خرج يطالب بحقه ، وحرية ، واستقلاله .

واستمرت الاجتماعات خارج الجزائر وداخلها لاتخاذ خطوة
ايجابية حاسمة مع فرنسا . وفي ٢٠ من أغسطس سنة ١٩٥٤ انعقد
مؤتمر في « الصومام » تكون فيه مجلس استشاري ، ومجلس تنفيذي
لجبهة التحرير الوطني - وكان أعضاء المجلس التنفيذي هم : فرحات
عباس - كريم بلقاسم - بن مهيدي - يوسف بن خدة - سعد دحلب .

وكان من الضروري ان يستعدوا بسرعة حتى يستطيعوا ان
يحققوا أمانى البلاد الوطنية - واضطر أحمد بن بيللا الى مفادرة الجزائر
حيث كان قد حضر اليها من القاهرة منذ أيام مضت - وكان الفرنسيون
يتربصون للقبض عليه - ولكنه قبل مفادته أرض الجزائر استطاع
ان ينظم مع زملائه المسئوليات داخل الوطن الجزائري كالآتي

رابع بيطاط لولاية الجزائر ، كريم بلقاسم للقبائل ، وعميروش
مراد لشمال قسنطينة والعربي بن مهيدي لوهران ، ومصطفى بن بولعيد
للأوراس . أما محمد بوضياف فيلحق بالاشقاء في القاهرة .

ولندع أحمد بن بيللا يكمل القصة بنفسه :

« كان ضروريا أن نستعد بسرعة حتى نحقق أمانى البلاد الوطنية بالقوة ، أعنى بالحرب . وقبل أن أتسلل الحدود كنت قد نظمت مع زملائي كل شيء ، اخترنا هيئة قيادة المناطق المختلفة ووضعنا قواعد للعمل بعد حدوث تلك الخلافات . لقد نجحنا فى الوصول الى توحيد الصفوف ، لقد اضطررت الى السفر الى جنيف ثلاث مرات من أجل تحقيق الهدف الوطنى » .

وقال بن بيللا :

« أرسلت الى أعضاء هيئة قيادة المناطق المختلفة أدعوتهم للمجيء الى سويسرا ، كان ذلك فى شهر سبتمبر عام ١٩٥٤ .

وفى حجرة صغيرة من فندق هادى فى احدى ضواحي مدينة برن عقد أول مؤتمر عسكري تمخض عنه قرار الحرب .

كانت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل عندما انتهت من رواية تفاصيل المساعى التى بذلتها للتوفيق بين أعضاء الحزب . وسكت . لم أقل بعد هذا كلمة واحدة . وقد فهم اخوانى الخمسة المجتمعون معى ما يجول بخاطرى .

كنت أجلس على حافة السرير وزملائي يجلسون على المقاعد . وواحد كان يجلس على الارض . وكل منا شارد بأفكاره . ، انه مستقبل شعب بأسره أصر على الحرية ، ومستعد لبذل الدماء ، والطريق هو أهم شيء الآن .

قلت وأنا اتطلع الى وجوه الحاضرين معى فى هذا الاجتماع : لن يفلح أى شيء لتوحيد الصفوف وتحديد البلاد الامركة حربية !

وتقرر فى هذه الجلسة اعلان الحرب على فرنسا . لم ينفذ الاجتماع فى تلك الليلة . سحب أحد زملائي طاولة ووضعها أمام السرير ، وجلسنا على هيئة مؤتمر وأخرجت خريطة كبيرة للجزائر ، ورحت أوضح الخطة التى وضعناها للمعركة الحربية . «

فى ذلك الاجتماع استقر الرأى على أن المعركة تحتاج من جيش التحرير الى خمس سنوات حتى يتم النصر .

واتفقوا على تقسيم الجهاد الى ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : هى التى بدأت بها الثورة ، وقد خصصت للاستعداد ومهاجمة مخازن الجيوش الفرنسية بصورة تكفى لتسليح جيش كامل ، وكان محدودا لهذه المرحلة سنتان على الأقل .

المرحلة الثانية : كانت للتوسع فى العمليات الحربية وتكوين مناطق نفوذ تعمل فيها جيوش التحرير بحرية ، وهى المناطق التى يطلق عليها بلغة العسكريين اسم « مناطق النشاط » وكان محدودا لهذه المرحلة سنتان أيضا .

المرحلة الثالثة : هي مرحلة التحرير وكان محدودا لها سنة واحدة .
وتتم خلالها عملية الزحف المقدس لطرد الفرنسيين من الجزائر .
كلها .

وتحدد في آخر اجتماع فجر يوم أول نوفمبر عام ١٩٥٤ موعدا
لساعة الصفر .

وجاءت ساعة الصفر

واندلعت الثورة في كل مكان

بوغت الاستعمار الفرنسي ، وذهلت السلطات الفرنسية . ففي
هذه الليلة كان ثلاثة آلاف مجاهد ينتشرون في الجبال وفي جميع أرجاء
الجزائر ، وقاموا بنحو ثلاثين هجوما في ليلة واحدة .
عندما طلع الفجر كانت الجزائر تستقبل مرحلة جديدة ، وحاسمة
من تاريخها .

* * *

كانت مفاجأة مذهلة . وصدر أول بيان عن قيادة الثورة الجزائرية
ليلة أول نوفمبر عام ١٩٥٤ .

وقال تصريح اعلان الثورة :

الى الشعب الجزائري

اليكم يا من سوف تزنون أعمالنا ، نريد بنشر هذا النداء أن نوضح
الاسباب العميقة التي دفعتنا للعمل ، فنبين لكم برنامجنا وماهيات
حركاتنا ، ومبررات نظرياتنا التي ما يزال هدفها الوحيد هو الاستقلال
الوطني في طاق الشمال الافريقي ، ونريد أيضا أن نجعل أمامكم الشبهات
التي يختلقها الاستعمار وأذنا به من الإداريين وسماسرة السياسة .

اننا نعتقد أن الحركة الوطنية وقد مرت عليها عشرات السنين من
الكفاح قد بلغت طور العمل والتحقيق . وبما أن المقصود بكل حركة
ثورية هو تهيئة الظروف للعمل التحريري فنحن نرى ان الشعب متحد
حول أوامر الاستقلال والعمل من الوجهة الداخلية أما من الوجهة الخارجية
فالجو السائد مناسب لحل المشكلات الصغرى ، ومنها مشكلتنا الجزائرية
بفضل المساعدة الدبلوماسية التي يمدنا بها اخواننا العرب والمسلمون
بوجه خاص .

ولنا كل عبرة في هذا القبيل بحوادث تونس والمغرب التي ترسم
خطة واضحة لكفاح تحرير بلاد الشمال الافريقي . ونلاحظ هنا أننا كنا
دائما في مقدمة دعاة الاتحاد في العمل بين أقطارنا الثلاثة ، ولكنه لم
يتحقق ويا للأسف .

أما اليوم - فان كلا القطرين الشقيقين قد تقدم في هذا السبيل
بعزم وقوة على حين أننا في الورااء نبوء بمصير المسبوقين ، اذ أصبحت

حركتنا الوطنية وقد أثقلتها أعوام من السكون والاساليب المتبدلة ،
وساء توجيهها ، وأعوزها تأييد الرأي الشعبي الضروري ، وجاوزها سير
الحوادث ، وأصبحت تنحل كل يوم على حين يزداد ابتهاج الاستعمار وهو
يعتقد أنه سجل انتصارا في مكافحته للطليعة الجزائرية .

ان الساعة جد خطيرة . . .

وأمام هذه الحالة التي كاد يفوتها كل تدارك ، قامت جماعه من
المسؤولين ، والمخلصين وقد التفت حولها أغلبية العناصر من الذين حافظوا
على سلامتهم وعزائهم ، وارتأت ان الوقت قد حان لاجراج الحركة الوطنية
من المآزق الذي أرهنتها اياه الحزابات الشخصية والاغراض ، ودفعها مع
شقيقتها المغربية والتونسية في الكفاح الثورى الحقيقى .

ونريد بهذا الصدد أن نبين أننا مستقلون عن الهيئتين المتنازعتين
على الرئاسة . . اننا نضع المصلحة الوطنية فوق كل اعتبار شخصى أو
نفوذى من الاعتبارات التقريرية الزائفة ، وذلك بموجب الاسس الثورية
فنوجه نشاطنا ضد الاستعمار الذى هو عدونا الوحيد الذى امتنع دائما
من أن ينيلنا أدنى نصيب من الحرية على طريق وسائل الكفاح السلمى .

هذه هى على ما نعتقد ، الاسباب الكافية التى جعلت حركتنا
التجديدية تتقدم للشعب تحت عنوان :

« جبهة التحرير الوطنى » .

والقصد من هذا هو اجتناب كل مظنة للتعريض وتمكين الوطنيين
الجزائريين من جميع الطبقات وجميع الاحزاب والحركات الجزائرية الخالصة ،
من أن يدرجوا في كفاح التحرير دون أى اعتبار .

ونوضح فيما يلى النقاط الاساسية لبرنامجنا السياسى :

الهدف : هو الاستقلال الوطنى :

١ - استعادة دولة جزائرية ذات سيادة ، ديمقراطية واجتماعية فى
نطاق المبادئ الاسلامية .

٢ - احترام جميع الحريات الاساسية دون ميزة عنصرية أو
دينية .

المقاصد الداخلية :

١ - التطهير السياسى بارجاع الحركة الوطنية الثورية الى منهجها
الصحيح وباتلاف جميع آثار سياسة الارتشاء والاصلاحات التى هى سبب
تعطلنا الحاضر .

٢ - جمع وتنظيم جميع القوى السليمة الموجودة فى الشعب
الجزائرى وذلك للقضاء على النظام الاستعمارى .

المقاصد الخارجية :

- ١ - تدويل المشكلة الجزائرية .
- ٢ - تحقيق وحدة الشمال الافريقي في نطاقها الطبيعي العربي الاسلامي .
- ٣ - في نطاق معاهدة الامم المتحدة تأكيد مودتنا الفعالة نحو جميع الامم التي تؤيد مساعيها التحررية .

وسائل الكفاح :

بناء على المبادئ الثورية والظروف الداخلية والخارجية نواصل الكفاح بجميع الوسائل حتى نبلغ غايتنا .

ولكى تصل جبهة التحرير الوطني الى ما ترمى اليه ، فانها تتخذ مهمتين أساسيتين متوازيتين تسعى بهما في آن واحد : مهمة داخلية في الميدان السياسي وفي ميدان العمل ، ومهمة خارجية تهدف الى ابراز المشكل الجزائري كشيء واقعي أمام العالم أجمع ، وبتأييد حلفائنا الطبيعيين ، وهذه المهمة شاقة ، وهي تتطلب تعبئة جميع القوى وجميع امكانيات الوطن ، ولا شك أن الكفاح سوف يطول أمده ولكن ما له محقق .

واجتنابا للتأويلات الزائفة والتعليقات الباطلة ، وبيانا لصدق تعلقنا بالسلام ، وحقنا لاراقة الدماء وازهاق الارواح البشرية ، فاننا نقدم قاعدة شريفة للمحادثات مع السلطات الفرنسية اذا كان لها حسن المقصد ، واعترفت نهائيا بحقوق الشعوب التي تستعمرها في التصرف بشئونها .

- ١ - الاعتراف بالوطنية الجزائرية في تصريح رسمي ياغى جميع الاوامر والقرارات والقوانين التي تجعل من الجزائر أرضا فرنسية تجاهلا بتاريخ الجزائر وجغرافيتها ولغتها ودينها وعاداتها .

- ٢ - فتح المفاوضات مع الممثلين المأذونين للشعب الجزائري على قواعد الاعتراف بالسيادة الجزائرية واحدة لا تتجزأ .

- ٣ - ايجاد جو ثقة بتحرير جميع المسجونين السياسيين الغاء جميع التدابير الاستثنائية ووقف كل مطاردة للقوات المكافحة .

وفي مقابل ذلك :

- ١ - تحترم المصالح الفرنسية والاقتصادية ما دامت مكتسبة عن طرق عادلة ويحترم الاشخاص والعائلات .

- ٢ - يخير جميع الفرنسيين الذين يريدون البقاء في الجزائر بين قوميتهم الاصلية ، فيعتبرون أجنبيا بالنسبة للقوانين الجارية ، وبين القومية الجزائرية ، فيعتبرون جزائريين في الحقوق والواجبات .

- ٣ - تحدد العلاقات بين فرنسا والجزائر وتكون موضوع اتفاق يبرم بين البلدين على أساس المساواة واحترام كل جانب .

أيها الجزائري !

اننا ندعوك لتأمل هذا الميثاق ، ومن واجبك أن تنضم اليه لتنقذ بلادك وترد اليها حريتها . ان جبهة التحرير الوطنى هى جبهتك ، وسيكون انتصارها انتصارا لك .

أما نحن فاننا مصممون على مواصلة الكفاح ، موقنون بعواطفك المعادية للاستعمار وقد وهبنا كل ما نملكه للوطن .

تحيا جبهة التحرير الوطنى .

تحيا الجزائر حرة مستقلة .

(أول نوفمبر عام ١٩٥٤)

وقام مجلس الثورة الوطنى : انتخب هذا المجلس ليقود الثورة ويصبح لجنتها المركزية والسلطة العليا فيها .

وأحمد بن بيللا هو قائد الثورة ورأسها المدير .

وهناك معه زعماء آخرون مثل كريم بلقاسم ، وبوضياف ويزيد وخيضر ورايح بيطاط وآية أحمد وغيرهم كثيرون .

أحمد بن بيللا هو أول من فكر فى تحويل الثورة السلمية التى تتخذ من المفاوضات والمطالب السلمية أساسا لتحقيق مطالب الشعب الجزائرى الذى انضم الى هذه الاحزاب واللجان السياسية . وقد تم أيضا انتخاب ٧٢ عضوا هم مجلس الثورة الوطنى .

وهكذا بدأ الكفاح يتجه وجهة ايجابية . وضعت جبهة التحرير الوطنى المصلحة الوطنية فوق كل اعتبار شخصى أو نفوذى من الاعتبارات التقريرية الزائفة : العدو الوحيد الآن هو الاستعمار .

الثورة الجزائرية الآن تسير فى الخط الثورى الصحيح . لن تقف عند تحقيق المطلب العاجل وهو الاستقلال الوطنى ، انها ستتخطاه الى ثورة شاملة ، ثورة اجتماعية واقتصادية . لن تكتفى الثورة بتحطيم الاستعمار وأجهزته ، ولكنها ستبنى الشعب بناء معنويا وماديا .

أحدث بيان أول نوفمبر ، بداية الثورة المسلحة ، تغييرا نفسيا عميقا فى جماهير الشعب .

قد لا يشعر المرء بعمق المعانى التى ينطوى عليها يوم أول نوفمبر عام ١٩٥٤ ، فهناك ناحية ايجابية تكمن فى الكفاح الذى غير الأوضاع فى الجزائر . منذ هذه اللحظة بدأت الثورة من الشعب ومن أجل الشعب . تجربة حية ستتجسد كل يوم وتمارسها الجماهير فى قلب المعركة ، ويا لها من معركة مصير : موت أو حياة ، والشعب الجزائرى ممثلا فى جبهة التحرير قد اختار منذ اللحظة معركة الحياة .

استجاب الشعب منذ اليوم الاول لمنشور اول نوفمبر الذى صدرته قيادة الثورة والذى دقت فيه ساعة العمل الثورى ودعت الجزائريين الى انتزاع حريتهم بالدماء ، وعدم الاهتمام بالكفاح يعتبر جريمة ، ومعارضته خيانة .

استجاب الشعب لهذا النداء ، ونظم صفوفه .

قررت كل الاحزاب لهذا السبب حل نفسها والانضمام الى جبهة التحرير الوطنية تحالفت القوى والاحزاب برغم تباينها فكرا واسلوبا ، بعد أن اجتذبتها ظروف النضال الجزائرى .

أصبحت جبهة التحرير الجزائرية تضم الاحزاب والجماعات المختلفة ، مجموعة الشباب الذين يؤمنون بمبدأ القتال المسلح ورؤيسها أحمد بن بيللا ، ثم جماعة مصالى الحجاج التى تؤمن بسياسة تطورات الظروف والحصول على الممكن ، ثم جماعة السياسيين القدامى .

الآن تبدأ مرحلة جديدة ، وعلى كل فرد أن يخوضها .

وقع الاختيار على عدد من الموظفين لتقديم استقالاتهم دفعة واحدة ، وتخلى المتعاونون مع السلطات الفرنسية عنها ، فأصبحت معزولة عزلا تاما عن الشعب .

السلطات الفرنسية تصطدم منذ هذه اللحظة بشعب وحد صفوفه ! وتتمنى لو تعرف أين يوجد هؤلاء الذين يشرفون على المعركة ، وعلى هذا التنظيم الجديد .

الثورة تنتشر فى كل مكان ، كما تنتشر النار فى الهشيم حينما تفرده الرياح ، واندفعت جماهير الفلاحين الجزائريين للانضمام الى صفوف جيش التحرير .

دخلت الثورة كل مدينة وكل قرية ، بل كل بيت وكوخ . لقد أصبحت ثورة الشعب كله ، الفلاحون والعمال وكل انسان يقدم كل شيء للجيش ، المأوى والطعام وكل مساعدة ممكنة !

وبدأت الهزائم تنزل بالمستعمرين الهزيمة تلو الاخرى برغم ازدياد القوات الفرنسية الضاربة .

الحرب غير متكافئة لا فى العدد ولا فى العدة ولا فى شيء على الإطلاق !

الجنود الجزائريون يرتدون الآن الزى العسكرى ، وقد أدخلت على جيش التحرير تحسينات فنية وعسكرية بفضل التدريب وبفضل ماغنمه من ذخائر فى ميادين القتال ، وبدأ الجيش ينشئ تشكيلات عسكرية وسياسية .

واهتدى القواد الفرنسيون الى فكرة يردون بها على الوطنيين . مندريس فرانس رئيس الوزراء حينئذ رأى أن يقابل القوة بالقوة ، فراح يضاعف من قواته فى الجزائر ليقضى على الثوار الجزائريين . والقواد

الفرنسيون يدفعون جنودهم الى تطويق المناطق التي أصابها عدوى العصيان - هكذا يزعمون ٠٠٠ رأوا هذا يكفي للقضاء على حركة النضال ، وعمدوا الى السكان المدنيين من هذه المناطق ، آملين من وراء هذه العملية التوصل الى تجويع قوات جيش التحرير الوطنى والقضاء عليها .

وفشل المستعمرون الفرنسيون مرات ومرات أمام قوة الكفاح واتساع رقعته ، واقتنع هؤلاء القتلة السفاحون أنهم فى هذه المرة لا يواجهون حركة اقليمية محلية ، ولكنهم يواجهون الشعب الجزائرى بأسره .

وعدل المستعمرون خططهم !

لابد من الحرب الشاملة !

حرب تشنها القوات الفرنسية الاستعمارية على الشعب الجزائرى . ولتكن حرب اباداة مرة ثانية .

وبدأت الحرب ... استخدموا لهذا الغرض أحدث وسائل التخريب والفتك الذريع . حرب الابادة تشنها فرنسا على حسب خطط مرسومة ، وتقع على مرأى ومسمع من العالم الذى أعلن فى هيئة الامم أنه لن يسمح بارتكاب مثل هذه الجرائم فى حق الانسانية .

والقسوة والتعذيب والقاء القنابل على المدن والقرى بما فيها من نساء وأطفال ومواش . الجنود الفرنسيون يقومون بهدم المنازل واحراقها دون شفقة ولا رحمة ..

وقد ذكر هذه الوسائل عشرات الكتاب ، معظمهم من الفرنسيين أنفسهم فى الكتب التى نشروها عن الجزائر وحرب الدماء هناك .

قال أحد الجنود الفرنسيين : « هذا جميل جدا ، يجب احراق الجزائريين فى مساكنهم الحقيرة لانهم لا يفهمون الا بهذه الطريقة : »

وذكر الكاتب الفرنسى « بيار هنرى سيمون » فى كتابه « ضد التعذيب » كيف رأى - جنود المظلات وهم يعذبون الوطنيين الجزائريين بأبشع الوسائل لارغامهم على الكلام وذلك بوضع ماسورة فى فم الوطنى تحت ضغط الماء حتى يخرج الماء من جميع منافذ الجسم والايدي مكتوفة وراء الظهر ، ثم يعلق من رأسه حتى تخرج المفاصل من مواضعها . وحين ذلك ينهال عليه جنود المظلات ضربا لا هوادة فيه ، فان لم يعترف بنىء يرضيهم ، يرتكبون عندئذ أشد الاعمال فظاعة الا وهى تسليط الكهرباء على رأسه ورجليه حتى يكاد يموت ، وأخيرا يضرب بالخنجر بين الكتفين ...

وجاء فى كتاب « المجندون » لكاتب فرنسى :

« نحن الآن فى وادى الصمام بالجزائر ، وقد جىء بثلاثة من

الوصنيين الجزائريين وأمرهم الجند الفرنسيون بحفر حفرة ، ثم دفنهم فيها الى العنق وبقيت رءوسهم معرضة لوهج الشمس : ووضعوا أمام كل منهم وعاء به ماء يبعد عن فمه نصف متر ، وقيل لهم انهم لن ينالوا شيئا الا اذا تكلموا ، فقد ظلوا على هذه الحال يومين كاملين ولم ينبس اثنان منهم ببنت شفة فأعدما وهما على تلك الحالة . أما الثالث فقال بعض كلمات في آخر لحظة ثم أعدم أيضا على أثر ذلك «

وشهد شاهد من أهلهم !

وقال الصحفي الانجليزى « جون جبتل » : ان متوسط عدد القتلى الجزائريين في عام ١٩٥٤ زاد على مائتى قتيل في الشهر الواحد ، أما في سنة ١٩٥٦ فقد وصل المتوسط الى ١٤٠٠ قتيل في الشهر الواحد ويرتفع العدد في الاشهر الاربعه الاولى من عام ١٩٥٧ حتى لقد وصل الى ٢٦٠٠ قتيل في الشهر . «

وأظهر كل جزائرى ، شابا أو رجلا ، أو امرأة أو كهلا أو طفلا ، أروع أمثلة البطولة ، وكان يستشهد منهم الكثير ، فهناك عشرات الابطال ، بل آلاف يموتون في أى وقت ، هناك جلاء أحمد ، ودينىب محمد ، ومهر بن حسين والكولونيل لطفى صديق ، ورابع بيطاط . وضرب المجاهدون الجزائريون أروع الامثال فى البطولة لشعوب الارض قاطبة .

والآن فلنعد الى القابع فى سجنه ، يعذب هو وزملائه والمعتقلون جميعا ، فى انتظار المحاكمة ! .

أحمد بن بيللا يتحدى الموت

أحمد بن بيللا فى السجن بين الجدران التى تخنق أنفاسه . وبرغم ذلك فهو ينزل الرعب والفرع فى قلوب أعدائه هناك على أرض الجزائر ، بل وفى قلوب حكام فرنسا نفسها . . وكانت حيرتهم بالفة عندما فكروا كيف يحاكمون أحمد بن بيللا وزملائه ؟ وما نوع المحكمة التى سيحاكم أمامها ؟

كانت فرنسا تتلهف للعثور عليه ، وتجنبد كل امكانياتها وقواتها ومخابراتها للقبض عليه ، وها هو ذا أحمد بن بيللا وأربعة آخرون ، بل وآلاف المجاهدين المعتقلين بين يدي فرنسا . والعالم أجمع ، أمم وشعوبه على اختلاف ألوانها تتلهف على سماع نهاية القصة قصة الخطف والقرصنة . أما فرنسا وحكامها فقد رأوا ان توجه الى أحمد بن بيللا اتهامات تقضى بمحاكمته هو وزملائه وفق المادة ٧٦ من القانون الجنائى وهى الاعدام .

وعندما كانت فرنسا تشكل المحكمة العسكرية التى ستصدر أحكامها بالاعدام على هؤلاء المجاهدين الزعماء الخمسة ، كانت لجنة التحقيق الدولية التى تشكلت بعد أن استنكرت الدول العربية والشعوب الآسيوية والافريقية العمل الاجرامى الفرنسى ، تواصل اجتماعاتها ، بعد أن تكونت من مندوبين يمثلون فرنسا ومراكش وإيطاليا وبلجيكا ولبنان .

وكان من رأى مندوب فرنسا أن الحادث وقع فى منطقة المراقبة الجوية الفرنسية . وطلب مندوب مراكش الاستماع الى أقوال بعض الشهود ، مثل قائد الطائرة الفرنسى الذى ثبت تأمره مع إدارة المخابرات الفرنسية لخطف الزعماء الخمسة . وأقوال مساعديه ، وبعض الصحفيين الذين كانوا يستقلون الطائرة نفسها ولكن السلطات الفرنسية رفضت تقديم الشهود . رفضت تقديم قائد الطائرة وضابط الاتصال وبعض الفنيين ليدلوا بأقوالهم أمام لجنة التحقيق الدولية . كانت تعرف أن ظهورهم على مسرح الحوادث كفىل يكشف عملية القرصنة كاملة .

وأجرى التصويت على الاقتراح المراكشى فى أثناء اجتماع اللجنة فى جنيف . ولم يقف الا مندوب لبنان الى جانب مندوب مراكش . وكانت النتيجة هى ثلاثة أصوات ضد صوتين ، وثار مندوب مراكش ، وأعلن انسحابه من اجتماعات اللجنة ، واتهم المندوبين البلجيكى والإيطالى بالتحيز الى جانب المندوب الفرنسى .

وتعطلت اجتماعات اللجنة ، وهذا كل ما كانت تسعى اليه فرنسا . كان هذا جزءا من المؤامرة ضد بن بيللا وزملائه .

ولم يندهش أحمد بن بيللا عندما ما سـمـع أن اللجنة انتهت اجتماعاتها بهذا الفشل . الى هذا الحد يمكن أن تضيع الحقوق ، بل السكوت على الاجرام والقرصنة التي تقوم بها فرنسا . ولكنه واثق أن الحق لا يمكن أن تقهره الابطايل ، فهو لا تهمة نفسه ، ولا يفكر في مصيره المحتوم ، سيعدم هو وزملاؤه ، ولكن حتمية النضال في الجزائر سوف تنتصر عما قريب .

أحمد بن بيللا يدرك جيدا امكانيات شعبه ، من القوى المعنوية . والارادة والتصميم على الانتصار مهما كان الثمن . انه يعرف امكانيات اخوانه الذين وصلوا الى أعلى درجات البطولة والتضحية .

وكانت قصة جميلة بوحرید مثلا من أمثلة البطولة الخالدة التي وثق أحمد بن بيللا أنها تكمن في الشعب الجزائري جميعه . وسمع وهو في سجنه قصة القبض عليها عندما كانت تجتاز مع اثنين من المجاهدين أحد أزقة القصبة في مدينة الجزائر ، فتصدت لهم دورية فرنسية واطلقت عليهم الرصاص ، فأصيب جميلة في كتفها وسقطت على الارض ، وتمكن رفيقها من الهرب ، ونقلها الجند الفرنسيون الى غرفة التحقيق . وبرغم جراحها بدؤوا يستجوبونها . جميلة الطالبة بكلية آداب الجزائر في السنة الاولى والتي تبلغ ٢٢ عاما ، كانت مسئولة عن الاتصالات السرية بالعاصمة الجزائرية .

وعذبت بعد ذلك تعذيبا متواصلا طيلة ١٧ يوما ، عذابا يندى جبين الانسانية لذكره ، ولم تعترف على زملائها ، ولم تفش سرا واحدا من اسرار الثورة أو من شبكات الفدائيين . وبعد هذا التعذيب قدمت الى المحاكمة .

استندت السلطات الفرنسية في حكمها الذي لوئث به القضاة ، الى شهادة فتاة جزائرية مناضلة هي جميلة بوعزة التي عذبت حتى فقدت عقلها تحت تأثير التعذيب وفعل المخدرات التي كان يجبرها الجنود على تعاطيها ، وبرغم ذلك فانها رجعت في شهادتها التي نسبت فيها الى جميلة انها وضعت قنبلة في مكان ما .

وعندما طلب المحامون عرض جميلة بوعزة على طبيب مختص في الامراض العقلية رفضت السلطات الاستعمارية طلبهم ، وكان القضاة الفرنسيون قد أحسوا بضعف الاتهام ، — فزعموا أن جميلة بوحرید اعترفت ، وانكرت جميلة هذا الزعم وطلب محاميها الاطلاع على نص الاعتراف وعرضوا عليه نسخة لا تحمل توقيعها ، ولما طلب الاطلاع على الاصل الذي يحمل توقيعها لم يجب الى طلبه . وانكرت جميلة أن يكون ذلك توقيعها وطالبت بتحقيق علمي لخطأها وخط الامضاء على نسخة الاصل التي ظهرت يوم المحاكمة فقط ، ولكن السلطات الاستعمارية رفضت طلبها .

وسجل محاميا جميلة بوحرید الفرنسيان : «جورج أرنو» «وجاك فرجي» هذه الوقائع في كتيب صنفه «أصدراه عام ١٩٥٧» ، حيث قال أرنو في خاتمة هذا الكتاب :

« يجب ألا تموت جميلة بوحرید كبرى اخواتها الخمسة جميلة التي تنتمى الى عائلة متواضعة ، وقد سبق لجنود المظلات أن قتلوا عمها الذي عرفها بجبهة التحرير الوطنى .

وقد كان ياسف السعدى قائد الفدائيين فى العاصمة يفضلها على الجميع لانها كانت مثال الشجاعة والاخلاص . »

وسمع بن بيللا الكلمات التي نطقت بها جميلة بوحرید وهى فى قاعة المحكمة ، هذه الكلمات التى الهبت بها كبرياء الاستعمار الفرنسى وجعلت أقسى القلوب فى العالم ينحنى اجلالا واحتراما للرمز الكبير ، والاسطورة الخالدة ، قالت جميلة : « أيها السادة ... كنت أعلم أنكم ستحكمون على بالاعدام لان أولئك الذين تخدمونهم يتشوقون لرؤية الدماء ... ومع ذلك فأنا بريئة ... والحقيقة كل الحقيقة اننى أحب بلدى ، وأريد الحرية ... ولهذا أؤيد كفاح جبهة التحرير الوطنى ... ولكنكم اذ تقتلوننا لا تنسوا أنكم بهذه المؤامرة الدنيئة انما تلتطخون شرف بلادكم ، ولا تنسوا أنكم لن تنجحوا أبدا فى منع الجزائر من الحصول على استقلالها ! »

وصرخ المحامى الفرنسى فيرجيس بأعلى صوته فى وجه القاضى الفرنسى رواتار وقال : « ماهذا ؟ هل نواجه هنا محكمة عسكرية ، أو اجتماعا للقتل ؟ »

وحرم على المحامى الفرنسى بعد هذا التصريح الخطير ان يترافع عن جميلة . وانتهت المحاكمة الصورية بالحكم باعدام جميلة .

وكان أحمد بن بيللا من وراء القضبان يتابع قضية بلاده فى هيئة الامم المتحدة فى نيويورك هناك على بعد آلاف الاميال من سجنه فى فرنسا .

كان ابراز القضية الجزائرية الى المسرح العالمى يشغل باله . جرت المداولات امام اللجنة السياسية التابعة للامم المتحدة فى فبراير ١٩٥٧ حول مشروع آخر فقد تقدمت بعض الدول الآسيوية الافريقية بمشروع ينص على : « الاعتراف بحق الشعب الجزائرى فى تقرير المصير ، على حسب مبادئ الأمم المتحدة - ودعوة فرنسا والشعب الجزائرى للدخول حالا فى مفاوضات - ومطالبة السكرتير العام بمساعدة الاطراف المعنية فى اجراء هذه المفاوضات وبتقديم تقرير بهذا الشأن فى دورة الجمعية القادمة . »

ثم تقدمت الولايات المتحدة تساندا أغلبية من وفود أمريكا اللاتينية بمشروع آخر هو عبارة عن لائحة اجراء بسيطة تعبر عن الأمل فى ايجاد حل ديمقراطى للنزاع .

وقد حرر فيما بعد نص لائحة افرو آسميوية ثانية اكثر اعتدالا قصدا بها كسب أكبر عدد من الاصوات ، وكانت تنادى ببدأ « مفاوضات بقصد الوصول الى حل سلمى » .

وسادقت اللجنة الساسية في النهاية على كل من :

المشروع الذي تقدمت به وفود أمريكا اللاتينية . والذي حصل
على ٣٨ صوتا مقابل ٣١ وامتناع ٣ عن التصويت .

والمشروع الآسيوي الأفريقي المعتدل بالأغلبية البسيطة ٣٧ صوتا
وتقدمت به الفيليبين وتايلاند واليابان . ولتأخذ صورة أكثر وضوحا
للموقف الدولي بالنسبة للجزائر ومدى الأثر الذي تركته في هذا العالم .
صوت ضد فرنسا كل من اليونان ويوغوسلافيا وتركيا والأكوادور .
وامتنعت بوليفيا عن التصويت .

أما فرنسا فقد ساندت وجهة نظرها الاستعمارية إحدى عشرة
دولة في الحلف الأطلسي ، كما ساندت بعض دول أمريكا اللاتينية وجهة
النظر الفرنسية .

وقد وعد جى موليه الذى رأس الحكومة الفرنسية الجديدة منافقا
ومخادعا بعد انتخابات يناير عام ١٩٥٦ بإجراء مفاوضات بعد وقف
إطلاق النار وإجراء انتخابات حرة .

وسادقت الجمعية العامة بعد ذلك بالإجماع (٧٧ صوتا) على
اللائحة التى كانت أوفق لفرنسا وهى لائحة جماعة أمريكا اللاتينية .

نعم هكذا أوصى مجلس الأمن هذه المرة بتسجيل القضية دون
مناقشتها يوم ١٥ من نوفمبر عام ١٩٥٦ ، وذلك بعد أن رفض مجلس
الأمن طلب مناقشة القضية الجزائرية بأغلبية سبعة أصوات مقابل
صوتين وهما إيران وروسيا . وامتنعت الصين الوطنية ويوغوسلافيا
عن التصويت .

وشعر أحمد بن بيللا كما شعر كل مناضل جزائرى بشيء من
الحق والسخط والغضب : فرنسا الباغية وخلفها العالم المتحضر لا يريد
أن يعترف بحق الشعب الجزائرى فى تقرير مصيره . هذا أمر واضح
لإجدال فيه .

ما زالت بعض دول العالم تصدق ما ادعته فرنسا فى عام ١٩٥٥
عندما انسحب الوفد الفرنسى من الجمعية بصورة ملفته للانتظار ، معربا
عن احتجاجه ضد ما يسميه « تدخل لا يغتفر فى شئون فرنسا
الداخلية » .

وبحثت بعض الوفود عن صيغة لبقة لدفع الوفد الفرنسى الى تغيير
موقفه واحتلال مقاعده من جديد فى المجلس .

وهكذا قدمت لائحة هندية على أن الجمعية العامة لن تناقش القضية
الجزائرية وأن القضية لهذا السبب لم تعد من مشمولات أنظارها .

وقدمت الشيلي والأكوادور وكوبا مشروع قرار بإلغاء القضية من
جدول الأعمال .

واعتمدت اللجنة السياسية في النهاية اللائحة الهندية التي سادقت عليها اثر ذلك الجمعية العامة للامم المتحدة بالاجماع دون مناقشة .

وهكذا انخسذل قرار المجموعة الاخرى آسيوية التي استندت الى توصيات مؤتمر باندونج الذي كان أول وأخطر مظهر عبرت فيه الشعوب الملونة على تضامنها في سبيل تحرير الشعوب التابعة . قرار هذه المجموعة بعرض القضية الجزائرية في جدول أعمال الدورة العاشرة للجمعية العامة للامم المتحدة تنتهى الى لا شىء !

وتعجب بن بيللا الذي قرأ مشكلات العالم أجمع وقضاياه الكبرى ، والذي درس قصص الشعوب المكافحة وقصة الاستعمار في العالم أجمع ألا تدرك هذه الدول التي وافقت مع فرنسا أن مناقشة القضية الجزائرية أمام الجمعية العامة تدخل في شئونها الداخلية ، بأن هذا الشعب الجزائري العريق المناضل كان شعبا مستقلا له حضارته وتاريخه وله دوره في العلاقات الدولية !

ولنعد الى الوراء قليلا ، أو كثيرا ، منذ أن كانت الجزائر دولة عربية ناهضة ، دولة غنية تقرض فرنسا ملايين الفرنكات . قصة البقي والعدوان من جانب فرنسسا على الجزائر . قصة كفاح الابطال في الجزائر ، وحركة التحرر التي لم تهدأ منذ وطئتها أقدام المستعمرين ، هذه القصة طويلة وشرح أمجادها يطول ، ولكننا سنحاول ايجازها لنعرف مدى كذب فرنسسا وافترائها عندما تدعى أن الجزائر لم تكن دولة في يوم من الايام وأنها الآن ولاية فرنسية عبر البحر المتوسط .

* * *

كانت الجزائر حتى عام ١٨٣٠ م - دولة ذات سيادة واضحة المعالم والحدود ، لها حيواتها القومية والدولية المعترف بها ، وكانت الجزائر أيضا خلال قرون مضت قوة في حوض البحر المتوسط . وتقع الجزائر في قلب أفريقية الشمالية ، وتؤلف مع بقية العالم العربي وحدة متجانسة ، وقد كان لها ملاقات ودية وتجارية واقتصادية مع دول البحر المتوسط ، وبعض الدول الاخرى التي تبعد عنها كثيرا كالولايات المتحدة الامريكية مثلا .

وكانت دولة الجزائر قد وقعت معاهدات كثيرة مع بريطانيا ، وأسبانيا ، وهولندا والدانمارك ، والبرتغال . .

وعلى وجه الخصوص سنستقصي الحقيقية عن العلاقات عموما التي قامت بين دولتي الجزائر وفرنسسا منذ عصر امبراطورية نابليون بونابرت التي ترامت اطرافها في ربوع اوربا .

اتجهت اطماع فرنسا الى شمالي افريقية بصورة عامة بعد فقد مستعمراتها في كندا والهند ، وفشل حملتها على مصر سنة ١٧٩٨ التي

قام بها نابليون بونابرت ، وتألب دول أوربا عليها بعد هزيمة نابليون في موقعة « واترلوا » سنة ١٨١٥ ، فجاءت قرارات مؤتمر فيينا في السنة نفسها لتسد عليها الطريق في أوربا ، فلم تجد فرنسا أخصب من شمالي افريقية ميدانا لتحقيق مطامعها الاستعمارية .

أما بالنسبة للوضع في الجزائر ، فانها ظلت دولة قوية تدور في فلك الدولة العثمانية ، مثلها كمثل بقية الدول العربية في ذلك الوقت . ولكن حينما دب الضعف والفساد في كيان الدولة العثمانية منذ نهاية القرن السابع عشر فمن ثم تأثرت الدول العربية الخاضعة لها ، وكان من أهم عوامل تفكك اوصال الامبراطورية العثمانية هو ازدياد نفوذ « الانكشارية » وسيطرتهم على شئون الدولة في الداخل والخارج . ولذلك رأينا اضطراب الامور في الجزائر ، وسيطر على الحكم فيها فرق الجند الانكشارية وبسطوا نفوذهم على والي العثماني نفسه ، ثم اختاروا من بينهم حاكما يلقب « بالداي » أصبح الحاكم المطلق في شئون البلاد ، وأصبحت سيادة العثمانيين سيادة اسمية ، وأبان حكم « دايات » الانكشارية نشطت أعمال القرصنة حتى أزهبوا السفن والتجارة المارة قرب سواحلهم ، وضجت دول أوربا لفزواتهم واغاراتهم - ولكن الداى كان يحمى القرصنة لانها أصبحت موردا ماليا رئيسيا للجزائر . وحاول الأوروبيون عبثا وبخاصة فرنسا ايقاف عمليات القرصنة وفشلت مساعيهم لدى حكام الجزائر .

وكانت الجزائر تتمتع بالاستقلال الذاتي في ظل الحكم العثماني منذ أوائل القرن السادس عشر ، وكانت دولة ذات علاقات سياسية واقتصادية على وجه الخصوص مع فرنسا . فقد وقعت فرنسا منذ عام ١٦١٩ نحو سبع وخمسين معاهدة صداقة وتحالف مع الحكومة الجزائرية حتى عام ١٨٣٠ ميلادية .

وعندما قامت الحرب بين فرنسا في عهد الملك « فرنسوا الاول » في القرن السادس عشر وبين أسبانيا في عهد الملك « شارل الخامس » طلبت فرنسا من الحكومة الجزائرية أن تقف بجانبها وتساعدوها في الدفاع عن « ساحل بروفانس » وبناء على هذه المعاهدات المبرمة بين البلدين وقفت الحكومة الجزائرية مع فرنسا في الدفاع عن ساحل بروفانس وتحرير مرسيليا من الأسبان في عهد « هنرى الرابع » ملك فرنسا حينما استولت عليها أسبانيا .

وللجزائر أيداد بيضاء على الثورة الفرنسية في أولى أيامها ، فقد استطاعت الجزائر أن تحطم الحصار المفروض عليها ، وتزودها بالقمح وتملأها بالمال . وقامت الجزائر بمثل هذا العمل ايفاء بنصوص المعاهدات المبرمة ، كما اعتبرت مبادئ الثورة الفرنسية الاولى عام ١٧٨٩م في فرنسا مبادئ تدين بها .

وكانت فرنسا في الثلاثينات الاولى من القرن التاسع عشر تمر بمحنة ، وتضرب الدول الاوربية حول الشعب الفرنسي حصارا اقتصاديا قاسيا . كما بلغت ديون فرنسا للجزائر ما يزيد على ستة مليارات من

الفرنككات : حدث ذلك في عهد حاكم الجزائر الداي « علي بن أحمد » وفي عهد خلفه الداي « حسين بن حسن » .

ولما استقرت الامور في فرنسا ، بعد الاضطرابات والافلاس ، عمد الداي الى المطالبة بدينه . وتلكأت فرنسا في الدفع ، بل جعلت تفكر في التخلص من التزاماتها والتهرب من تسديد ديونها حتى ولو اضطرت الى استخدام القوة !

وأتيحت لفرنسا الفرصة الملائمة . فقد لبثت الجزائر نداء الدولة العثمانية في حربها مع روسيا وانجلترا وفرنسا ، ابان ثورة اليونان في سنة ١٨٢٧ - وكان الاسطول الجزائري من بين الاساطيل التي تحطمت في معركة « نفارين » البحرية . وفي الوقت نفسه كانت فرنسا تقف بالمرصاد للجزائر ، كفت تترقب الفرص لاحتلالها ، وتذرعت بشتى الوسائل والسبل للاحتكاك بالجزائريين . ومهدت لذلك الاسباب وعمد قنصل فرنسا الى اصطناع خلاف مع الداي « حسين بن حسن » وتصادف أن حدث - في أثناء مناقشة بين الداي - والقنصل الفرنسي « مسيو ديفال » عام ١٨٢٧ - بشأن تعويض يهوديين فرنسيين عن صفقة مالية - ان احتدم الجدل ، وغضب الداي ، فلوح بمذنبته في وجه القنصل ، ولامست المذبة وجه الرجل ، وفقدت حكومة فرنسا أعصابها و وعدت ذلك العمل اهانة لا تفتقر موجهة اليها في شخص ممثلها . وثار ثائرة الفرنسيين ، وسعت فرنسا الى اتخاذ هذا الحادث البسيط ذريعة لاحتلال الجزائر وتأديبها !

وكانت لفرنسا أغراض عميقة ، اذ أنها تريد أن تتهرب من دفع ديونها للجزائر ، وتستولي على الاموال الطائلة التي قال لها جواسيسها انها مكدسة في خزائن الداي بمدينة الجزائر . لم يكن هذا فحسب بل الاستيلاء على الجزائر وتحويلها الى مستعمرة تستأثر بخيراتها ، وتعوضها عن مستعمراتها المفقودة في كندا والهند .

انها خطة استعمارية - رسمت بامعان تام على أساس تنفيذ أغراضها الاستعمارية في شمالي افريقية - وعلى أساس أن تصيب ثلاثة أهداف في وقت واحد : التخلص من الدين ، وملء خزانة فرنسا بأموال الجزائر - والاستيلاء على بلد مترامي الاطراف كثير الموارد - في قلب شمالي افريقية .

وقام « شارل العاشر » سنة ١٨٢٧ م . بإرسال اسطول فرنسي لتأديب الداي الجزائري ، وقامت بعض السفن بمحاصرة مدينة الجزائر . ولكنها لم تجرؤ على النزول بالبلاد ، والتوغل فيها ، وقد فشلت هذه الحملة بعد عامين من محاصرة مدينة الجزائر التي تقع على ساحل البحر المتوسط . واضطرت الحملة ان ترفع الحصار وتعود الى فرنسا مكالة بالخزي والعار والفشل في مهمتها نتيجة لمقاومة الشعب الجزائري ووقوفه في وجه حملة فرنسا .

ولاحث - في الافق - فرصة اخرى لفرنسا حينما أطاحت الرياح عام ١٨٢٩ م بسفينة فرنسية الى الساحل الجزائري في منطقة محرومة ،

فأطلق عليها الجزائريون النار وأدت هذه الحادثة الى ثورة الشعب الفرنسي ومطالبة الحكومة بالقيام بعمل ايجابي .

وعلى أثر ذلك قررت فرنسا غزو الجزائر في شهر مايو سنة ١٨٣٠ ورحل أسطولها من ميناء « طولون » سرياً بعد آخر في طريق العدوان . وقد خلا البحر المتوسط من أسطول جزائري يرد ذلك الغزو الذي لم يكن أحد يتوقعه . وفي الرابع عشر من شهر يونيو نزلت طلائع الجيش الفرنسي في ميناء « سيدى فرج » على بعد أربعة وعشرين كيلو متر من - الجزائر - العاصمة واتخذها القائد العام الجنرال « بورمون » وزميله الاميرال « دوبري » قاعدة للعمليات الحربية التي جهزت لها فرنسا ثلاثين ألفاً من جنودها .

وباغت الفرنسيون العاصمة - الجزائر - وأحاصروها من ناحية البر بأسلحتهم الثقيلة ، وصمد الجيش الجزائري بالرغم من المفاجأة ، وهرع السكان أيضاً الى صد الغزاة بما توافر لهم من سلاح وعتاد . وحتى النساء لحقن بالرجال يحملن لهم الذخيرة ويتولين اعداد الطعام ويضاعفن حماسهم بالاهازيج الوطنية .

وتوالى المعارك خلال ثلاثة أسابيع كاملة ، تكبد فيها المعتبدون خسائر فادحة ولم يتمكنوا من السيطرة على مدينة الجزائر - عاصمة البلاد - الا في اليوم الخامس من شهر يوليو من ذلك العام ١٨٣٠ م .

وتابع الفرنسيون توغلهم في الاراضي الجزائرية حتى وصلوا الى مداخل « القصبة » مركز الدفاع الرئيسي ، ولكن حامية الحصن الكبير المشرف على المدينة ظلت تواصل القتال من وراء الاسوار العالية والابراج المنيعه .

لم يكن عدد المدافعين عن الحصن يزيد على ألفين من مقاتلين ، على حين كان يحاصر الحصن - عشرة آلاف من جنود « بورمون » الفرنسي وظاف في ذلك الوقت العصيب قائد الحامية « الخزنجي » وهو وزير المالية الجزائرية ، على جنوده في مراكز دفاعهم - وأقسموا بين يديه على مواصلة الدفاع بقدر ماتسمح به طاقتهم البشرية . . سيدافعون حتى آخر قطرة من دمائهم - وامتد الحصار أسبوعاً كاملاً

كلما فتحت مدفعية العدو ثغرة في الاسوار ، كان جنود الحامية الباسلة يسارعون الى سدها بالحجارة وأحياناً بجثث القتلى من رفاقهم . . تضحيات رائعة في كل ساعة ، وبطولات وشهداء يتساقطون واحداً بعد واحد - حتى لم يبق غير بضعة عشرات من الرجال ، أنهمكهم التعب ، ونال منهم الجرمان كل منال ، ومن حولهم خرائب وأطلال .

واحتل الفرنسيون عاصمة الجزائر - ونهبوا القصبة ، ووضعوا ايديهم على خزائن الحكومة الجزائرية المملوءة ذهباً وفضة وحجارة كريمة غالية الثمن ، ونقلوا ذلك الكنز الهائل الى بلادهم حيث تلقاه ملك فرنسا شارل العاشر ورجال حكومته بمظاهر الفرح والابتهاج . بلغ قيمة ما دخل خزانة فرنسا بعملية السطو هذه ثمانية عشر ملياراً من الفرنكات .

ولما أضاف الملك والمسئولون عن الحرب ثمار السطو الى قيمة الدين الذي تخلصوا منه وهو - ستة مليارات من الفرنكات ، وجدوا أنهم استرجعوا نفقات الحملة لغزو الجزائر ، بل وربحوا مبلغا كبيرا : ربحوا أربعة وعشرين مليارا من الفرنكات ، أقر الملك أن يستعان بها لسد العجز في الميزانية وانقاذ فرنسا من الافلاس .

عندما سمع أحمد بن بيللا وهو تلميذ صغير هذه القصة غلى الدم في عروقه ، لقد عرف قصة الجريمة التي ارتكبتها فرنسا في حق بلاده ، وحق أجداده وآبائه الذين استشهدوا منذ مقدم هؤلاء السفاحين الى اللحظة الحاضرة ، ورأى محمد أحمد بن بيللا التلميذ النباه الذي لا يتكلم إلا اذا سئل ، رأى أنه من غير المعقول أن تحتل فرنسا بلاده ~~استقام~~ لكبرياء زائف وكرامة مفقودة ، ومن الداي حسين الذي لوح بمذنبته في وجه القنصل الفرنسي ، لم يصدق أن فرنسا تسرع الى احتلال الجزائر وانزال الخراب والدمار في كل بقعة فيها ، واتباع سياسة ابادة كاملة لاهلها الذين هبوا يدفعون شرا جثم على صدورهم ، وغريبا جاء ليلنس أرضهم ، كل هذا ردا للاهانة التي لحقت بها ، بل وتكلف نفسها مائة مليون فرنك ، وتعرض حياة أربعين الفا من الجنود والضباط للموت نارا لكرامتها ؟

أحمد بن بيللا يطالع تاريخ بلاده ويقف مشدوها أمام تلك الحقائق ، وأمام تلك المزاعم والأباطيل التي تسوقها فرنسا لتبرر احتلالها لدولة الجزائر . فقد قال شارل العاشر ملك فرنسا في ذلك الحين ، أنه لم يراع في الاستيلاء على الجزائر سوى اعتبارات الكرامة الفرنسية ولكنه هو نفسه ينفي ما قال في تصريح آخر له عندما اعترف بالحقيقة التي لا يمكن أن ينكرها التاريخ : أنه ينوى انشاء مستعمرة هامة في قلب شمالي أفريقية .

وقال رؤساء فرنسا أنه أصبح من العسير على فرنسا أن تتراجع بعد أن فتحت الجزائر فتحا باركتها المسيحية ودولها . وراحوا يزعمون مزاعم أخرى بأن قالوا : أنهم أنقلدوا الجزائر بفزوها من الوقوع في براثن غزاة آخرين .

عرف محمد أحمد بن بيللا كل مزاعم فرنسا ، وعرف حقيقة الاوضاع في بلاده ، والكراهية تملأ قلبه للدين مزقوا اوصال بلاده . . وعرف لماذا يصر مدرس التاريخ الفرنسي على أن يذكر لهم في المدرسة أن الجزائر ولاية فرنسية ، وتمنى لو يستطيع أو يفعل شيئا ، ولكنه أصغر من أن يفعل شيئا ، فليس المهم أن يعمل ، ولكن المهم أن يكون لعمله قيمة بالغة ، ويساعد في تحرير بلاده من المفتصبين الفرنسيين .

وقص التلميذ الصغير على بعض زملائه قصة احتلال الجزائر والمقاومة البطولية التي استشهد فيها آلاف وآلاف . واندھش التلاميذ أن يحيط زميلهم أحمد بن بيللا علما بكل هذه المعلومات والتفاصيل ، واستمعوا اليه في صمت وهو يسرد لهم ثورة الامير عبد القادر الجزائري الذي دوخ فرنسا .

ورجع تلميذ صغير من هؤلاء الى منزله ، وجلس مع جده المعمر وطلب منه أن يسرد له قصة كفاح الزعيم عبد القادر بعد أن ظن الفرنسيون أن الأمر قد استتب لهم في الجزائر ، ولكن سرعان ما خاب ظنهم -

عندما دخل الفرنسيون العاصمة ظنوا أن الأمر قد استتب لهم، ولكن سرعان ما تبدد أملهم وخاب ، لانهم في الواقع لم يستولوا الا على العاصمة والساحل فقط . أما الاقاليم الجنوبية في الداخل فقد واصلت الجهاد والكفاح ضد هؤلاء الغزاة وتزعّم حركة المقاومة هذه الامير عبد القادر الجزائري الذي كان يبلغ من العمر أربعة وعشرين عاما ، واستطاع أن يوحد الصفوف وقادهم في جهادهم الرائع .

وتمكن الامير عبد القادر بن محيي الدين أن يدوخ أكبر جيش أوربي في ذلك الوقت ، طيلة خمسة عشر عاما من الكفاح المتواصل ، وكان هذا الشاب يمتاز بـ عنانة الخلق ، واراذته القوية وصبره الذي لا ينفد . وكانت له شخصية قوية بين مواطنيه ، حتى أن قواد فرنسا اعترفوا بقولهم : أنه استطاع دائما الاقلاّت من ضرباتنا ، وقد بعث فينا اليأس وقلب خططنا رأسا على عقب ، فبعد أن كنا نطارده هو نفسه ، أصبحنا نعمل فقط على منع القبائل من الانضمام اليه حتى لا تقوى جبهته ضدنا

وقد استطاع الامير عبد القادر أن يبعث الفرع والرعب في قلب عدوه الجنرال « ديميشيل » الفرنسي ، وان يسيطر عليه اليأس . فآثر القائد الاستعماري أن يعقد معه في ٢٦ من فبراير عام ١٨٣٤ معاهدة اعترف له فيها بالامارة وبقدر من السيادة لم تحدّد معالمه بالضبط . وزاد هذا الاتفاق من شأن الامير عبد القادر في البلاد . ويشاء القدر أن يتم ديميشيل عقد هذه المعاهدة قبيل أن تصله تعليمات من فرنسا بعدم الاعتراف بأي شيء لعبد القادر بل يجب أن يعترف هذا الثائر بسيادة فرنسا كاملة مقابل أن يعين هو « داي » على بعض القبائل ، ويحصل من فرنسا على نصيب معين من المال .

وعرفت فرنسا ان الاتفاق قد تم فعلا . واراّت ان تجعل منه وسيلة لضم الامير عبد القادر تحت جناحها ، وجعله مواليا وصنيعة لها

ودامت المقاومة الوطنية والمساومة الفرنسية عاما ونصف عام مرت فيها الجزائر بفوضى عمت البلاد وهزت كيائها ، واستطاعت فرنسا استغلال الموقف للتوسع في الفتوحات داخل البلاد .

وظل الامير عبد القادر شوكة دامية في قلب الاستعمار ونهض الزعيم لينقض على فرنسا كالصقر ، وكان يكتسب النصر بعد النصر ، ويستعيد اجزاء من ارض بلاده ، لدرجة أحست فيها فرنسا بضعفها امام قوته التي تمثلت في المقاومة الشعبية التي وحد صفوفها .

وقام القائد الفرنسي بمناورة جديدة يرد بها الاعتبار الى فرنسا، وقوات الاحتلال في أرض الجزائر ، فاصدر أوامره الى قواته العسكرية بالتحرك من مدينة قسنطينة الى مكان آخر ، وتحركت القوات بالفعل

الى المنطقة المسماة « بالابواب الحديدية » وكانت هذه المنطقة داخلة تحت امرة عبد القادر الجزائري بمقتضى نصوص المعاهدة المبرمة مع الحاكم العام عام ١٨٣٤م ، وقامت القوات الفرنسية بمهاجمة المنطقة على حين غرة ، فما كان من الامير عبد القادر الا أن شن الحرب ضد قوات الاحتلال . وشرع بالفعل في غزو منطقة « متيجة » . وازاء هذا الموقف الراهن في الجزائر رأت فرنسا عام ١٨٤١ العمل على احتلال البلاد احتلالا كليا .

وقال الحاكم العام الفرنسي حينئذ في خطاب وجهه الى ابناء قومه في الجزائر : « يجب أن يخفق العلم الفرنسي على أرض الجزائر ، واعدكم اننى سأكون استعماريا نشيطا . »

وازاء هذه السياسة الفرنسية الجديدة اعلن الجنرال بوجوالحاكم العام الفرنسي أن جميع مصالح الجزائريين تتمثل في زراعتهم ، لذلك يجب الاستيلاء على حقولهم .

وبدأت فرنسا من جديد ترتكب أبشع انواع الجرائم البشرية التي سجلها التاريخ يوما بعد يوم متكررة لمبادئ ثورتها عام ١٧٨٩ ، ثورة المبادئ الثلاثية الحرية والاخاء والمساواة التي تشدقت بها بلاد الحرية الزائفة والاخاء الكاذب والمساواة التي لا تمت للمساواة بصلة .

وقد اشمأز من هذه الجرائم التي تذهل قساة القلوب بعض الذين شاركوا فيها او امروا بتنفيذها مثل القائد الفرنسي الكونت «هريسبون» الذي قال : « فظائع لا مثيل لها ! اوامر بالشنق تصدر من نفوس كالصخر يقوم بتنفيذها جلادون قلوبهم كالصخر ، بالرمي بالرصاص أحيانا وبأستعمال المقصلة أحيانا أخرى ، في أناس مساكين كل ذنبهم انهم لا يستطيعون ارشادنا الى ما نطلب اليهم أن يرشدونا اليه ، أو نتيجة لالتفافهم حول زعيمهم عبد القادر الجزائري » .

ويقول الجنرال شان جارنييه : « ان رجاله وجدوا التسلية في جزر رقاب المواطنين من رجال القبائل الشائرة . »

وعبثت فرنسا على أرض الجزائر بكل شيء حتى العقائد حتى الدين الاسلامي . فقد أصدر القائد « روفيجو » لاعوانه أمرا بأن يحولوا أجمل جوامع الجزائر الى كنيسة وفي ظهر يوم ١٨ من ديسمبر عام ١٩٣٢ تحركت احدى بطاريات الجيش الفرنسي ، وخرجت فرقة من سلاح المهندسين ، فهاجمت أبواب المسجد وفتحته بالقوة ، واذا بداخله أربعة آلاف مسلم اعتصموا ببيت الله ، فاندفع نحوهم الجنود الفرطسيون ، وحاصرتهم بالسناكي ، وأطلقت عليهم وابلا من الرصاص ، فخروا صرعى ولم يطلع الصباح حتى كان المسجد قد تحول الى « كاتدرائية الجزائر » .

وفي أعقاب الفترة التي تلت اعلان الحرب من جانب الامير عبد القادر وقاسى فيها الجزائريون شتى الوان العذاب والبؤس ، قام الجزائريون بأعمال انتقامية يشفون بها غليلهم . كانوا ينقضون على جماعات العساكر الفرنسية ويذبحونهم .

وتلفت الحاكم الفرنسي (يوجوم) حوله فرأى الطريق أمامه طويلا
وروعرا ، ولكن سرعان ما عاوده الأمل من جديد بعد أن استولى في عاصي
١٨٤١ و ١٨٤٢ على مواقع عبد القادر المنيع ، بعد أن قوى تحصيناته
جنوبي منطقة « التل » وعلى المرتفعات والهضاب ، عاوده الأمل في احراز
النصر على عبد القادر الجزائري .

ولكن الأمير الجزائري استطاع أن يقنع سلطان مراکش بالوقوف
معه ، لتعمل على تحرير أرض الجزائر لان احتلال الجزائر - قلب شمالي
أفريقية - معناه احتلال المنطقة كلها فيما بعد اذا استتب الامر لفرنسا .

وأجبر الفرنسيون سلطان مراکش عن التخلي عن مؤازرة عبد القادر
الجزائري بأن شن الفرنسيون غارة على طنجة ومغادور في أغسطس عام
١٨٤٤ بالقنابل ، وعقدوا معه معاهدة في ١٠ من ديسمبر من العام نفسه
راضط سلطان مراکش الى التراجع عن مساندة الجزائريين . ورغم
ذلك استطاع الأمير عبد القادر أن يحرز عدة انتصارات على الفرنسيين
حينما انقض الثوار بقيادته في جبل « الظهرة » وجبل « أرسنيس » عام
١٨٤٥ مما اضطر الفرنسيون معه الى تعبئة ١٠٨ آلاف من الجند لمقاومة
عبد القادر ومحاولة القضاء عليه هو وأعوانه .

واكتسح « يوجو » في عام ١٨٤٧ حصن أزرو في منطقة القبائل
ذلك الحصن المنيع الذي فشل في الاستيلاء عليه - وغضبت فرنسا
فاستدعت ذلك القائد في شهر يونيو عام ١٨٤٧ ليعين مكانه الدوق
« دو مال » .

وقد نال الجهد والتعب من الأمير عبد القادر ، فعاد الى الاحتماء
بسلطان مراکش وأخذت حالته تسوء وتندهور ، اذ بدأت القبائل التي
كانت تحت قيادته تتوق الى السلم في الوقت الذي تنكر السلطان له .
فما كان منه الا أن عاد الى وطنه أرض الجزائر وأخذ يستحث همم القبائل
لمواصلة القتال ، الى أن جاء اليوم المشئوم عندما انقت فرنسا القبض عليه
في ٢٣ من ديسمبر عام ١٩٤٧ .

وظل الأمير المجاهد معتقلا في مدينة « بو » ثم نقل الى « امبواز »
وظل بها حتى عام ١٨٥٢ وفي نهاية المطاف نفى الى خارج بلاده ، واختار
سورية منفى له ، فظل في دمشق حتى توفي بها عام ١٨٨٣ .

وبدأت فرنسا بعد ذلك تنفذ سياسة نزع الاراضي الزراعية من
أصحابها الجزائريين فقد صدر في أكتوبر عام ١٨٤٤ قرار يقضي بمصادرة
أراضي الأسرة المالكة أسرة الداي حسين ، وفي ٣١ من مايو عام ١٨٤٦
صدر قرار بمصادرة الاراضي التي تقيم فيها القبائل الرحالة مما اضطرهم
الى العمل كاجراء في أرضهم . ثم استولت بعد ذلك على ٢٠٠ ألف هكتار
من الغابات و ٦١ ألف هكتار من أراضي العرش .

وأرسلت الحكومة الفرنسية الى الجزائر نحو ٤٠ ألفا من الفرنسيين
المقطاء والضالين والمجرمين ليستوطنوا الجزائر وامتدتهم بالمال ، واقطعتهم

مساحات واسعة من الاراضي الزراعية . وجاءت موجات أخرى من هؤلاء
الافاقين والمجرمين الى الجزائر ليستوطنوها .

وجاءت الحرب السبعينية بين فرنسا والمانيا حيث هزمت فرنسا
فأرادت أن تنسى الشعب هزيمتها ، وسارعت بانقاذ سمعتها ورأت أن
تعوض خسائرها لفقدائها للزاس واللورين ، فبدأت تعتبر الجزائر اقليما
فرنسيا وأصبحت الجزائر تعتبر جزءا من الكيان السياسي لفرنسا ، فلم
تتبعها لوزارة المستعمرات بل أتبعها لوزارة الداخلية شأنها في ذلك شأن
أية مقاطعة في فرنسا .

ورأت فرنسا أن تقسم الجزائر على أساس ادارى الى ولايات ثلاث
هى وهران والجزائر وقسنطينة وجعلت لكل ولاية ممثلا في مجلس الشيوخ
وأخر في مجلس النواب في باريس .

انتهجت فرنسا هذه السياسة وسارت فيها الى أشواط بعيدة .
انتهجت سياسة الاستعمار الاستيطاني في الجزائر . بل وفرنسية
الشعب الجزائري العربي . وكان هذا أبغض أنواع الاستعمار الذي عرفته
شعوب آسيا وأفريقية .

وبلغات فرنسا من جديد تجلى السكان الوطنيين عن أراضيهم ليحل
محلهم فرنسيون مستعمرون . ونفذت في اقليم التل أبشع الجرائم فلقد
لجأت فرنسا الى اجبار الجزائريين الوطنيين من الفلاحين على الرحيل عن
أراضيهم ، تحت سياسة الضغط والتهديد وفرض الضرائب الباهظة دون
مبرر وتوالت عمليات ترحيل الفلاحين الفرنسيين على حسب خطة مرسومة
باحكام وعلى نطاق واسع .

وبلغ عدد الفلاحين الفرنسيين في الجزائر ٣٠٠ ألف نسمة وقامت
الحكومة الفرنسية ببناء ٨٠٠ قرية ، وبلغت مساحة الاراضي التي اغتصبتها
السلطات الاستعمارية من المواطنين خمسة ملايين فدان .

واتجهت فرنسا الى سياسة زراعة الكروم بأرض الجزائر بعد نجاح
زراعته في سهل « ميتيجة » على أثر الوباء الذي أصاب حقوله في فرنسا
عام ١٨٧٨ وبدأ إنتاج النبيذ في الجزائر ورغم أنه لن يستغل محليا لان
سكان الجزائر مسلمون لا يشربون الخمر . ورسخت صناعة النبيذ هناك
وكان لسياسة تصدير المواد الخام الى فرنسا لتورد الى الجزائر من جديد
وبأثمان باهظة أثر سيء ، فقد زاد عدد المتعطلين ، وتفشت البطالة بينهم
حتى أصبحت تشكل خطرا على المستعمرين أنفسهم .

وأحمد بن بيللا يحفظ كل ذلك عن ظهر قلب ، بل يعرف كل
التفاصيل بالارقام كلها محفورة في قلبه .

ومن حقنا أن نتساءل : ماذا يفعل الشعب الجزائري الذي حرمه
المستعمرون حقه في العمل ؟

ان الشعب الجزائري يتمتع الآن بحق واحد في بلاده وعلى ارضه
انه حق الموت جوعا

وهكذا أصبح المواطنون الجزائريون مرغمين على التخلي عن كل شيء ،
التخلي عن زوجاتهم وعن أطفالهم وعن ديارهم ، ووطنهم العزيز المقدس
الذي يحملون له الحب والافتاء بكل نفس ونفيس . هكذا أصبح
المواطنون مضطرين الى الهجرة سعيًا وراء الضروريات فهاجر فريق الى
فرنسا وهاجر بعض آخر الى تونس أو مراکش .

وظلت روح المقاومة والكفاح كامنة في أعماق الشعب الجزائري
لاصيل ، تظهر حينًا بعد حين في صورة صدام بين قوى مسلحة غاشمة
وشعب أعزل من السلاح ، حتى قبل مولد أحمد بن بيللا بعدة سنين .

تجمع بعض الشباب الجزائري في عام ١٩١٢ ، هؤلاء الذين أدركوا
مدى التفرقة بين الاجنبي والوطني الجزائري فأنشئوا « الحزب الجزائري
الفتى » وكان يهدف الى محاربة الخدمة العسكرية التي أصبحت اجبارية
بالنسبة للجزائريين العرب في جيش فرنسا ، وتهدف كذلك الى إلغاء
« قانون الوطنيين » الذي ينص على أن المسلمين لا يستطيعون الانتقال
من مكان الى آخر الا باذن من السلطات الادارية ويعمل لنشر التعليم
والعمل على زيادة ممثلي الحزب في الجمعيات المنتخبة .

وقد تقدم صفوف هذه الجماعة الامير خالد وعو من احفاد الامير
عبد القادر الجزائري وذلك للسعي وراء استقلال البلاد .

وبدأ الكفاح يتخذ شكلا ايجابيا في قلب فرنسا نفسها . فقد
تكونت من المهاجرين الجزائريين في فرنسا جمعية « نجم شمالى أفريقية »
وكانت برئاسة الحاج علي عبد القادر الذي أنشأ صحيفة « نجم شمالى
افريقية » من أجل الدفاع عن المصالح الادبية والمادية والاجتماعية لمسلمي
شمالى أفريقية .

وخلفه في زعامة الجمعية « مصالي الحاج » السدي كان حينئذ في
التاسعة والعشرين من عمره بعد ان سرح من الجيش الفرنسي .

وقد ألغت الحكومة الفرنسية هذه الصحيفة لانها كانت تطالب دائما
باستقلال البلاد ، ولطابعها الوطني الذي لا تقره فرنسا . واستطاعت
جمعية نجم شمالى افريقية أن تتضامن مع الحزب الشيوعي الفرنسي الذي
كان يرى ضرورة التحالف مع الوطنيين الجزائريين من أجل التوحيد بين
الاقلية الأوربية والأغلبية المسلمة لوضع حد للنزاع الذي يستفيد منه
الاستعمار . وتضامنا في اصدار برنامج يقضى بعدة نقاط :

- ١ - استقلال الجزائر استقلالا تاما .
- ٢ - انسحاب جميع قوات الاحتلال .
- ٣ - انشاء جيش وطني .

كما أشار البيان الى واجبات الحكومة الوطنية في ظل الاستقلال

التام الى ضرورة انشاء جمعية تاسيسية تنتخب بالاقتراع العام ومنح حق الانتخاب لجميع سكان الجزائر واعتبار اللغة العربية لغة البلاد الرسمية .

وتضمن البيان وجوب تسليم جميع المرافق التي استولى عليها المستعمرون واسترجاع الممتلكات الكبيرة التي صادروها ، واعادة توزيعها على الفلاحين الذين يزرعونها . وأشار البيان الى حق العمال في العمل وتكوين هيئات نقابية لضمان مصالحهم وحقوقهم .

واستطاعت صحيفة « نجم شمالى افريقية » أن تصدر سرا حتى عام ١٩٣٣ ثم اكتشف أمرها ، وقبض على رئيس تحريرها وهو « مصالى الحاج » وأودع السجن بتهمة اعادة تكوين هيئة سبق الغاؤها .

وأطلق سراحه في عام ١٩٣٥ ، فعاد نشاطه من جديد من أجل قضية الجزائر حتى القى القبض عليه بعد أربعة شهور . واستطاع أن يلجأ الى سويسرا فارا حيث تابع نشاطه من هناك ، وظل يصدر تعاليماته السرية لاتباعه ومعاونيه ليتموا سلسلة أعمال المقاومة التي كان قد بدأها .

وبدأ الحاكم الفرنسى وزير الداخلية يتشددان فى تضيق الحناق على الاحرار فى الجزائر .

وعاد مصالى الحاج من سويسرا بعد أن اتسعت حركة التحرير تحت اسم « الجبهة الشعبية » وزاد عدد أنصار الجبهة حتى أصبح لها ثلاثون شعبة فى شتى أنحاء البلاد .

وأصدر الحاكم العام الفرنسى فى ٢٦ من يناير عام ١٩٣٧ قرارا بالغاء حزب النجم من جديد .

ومرت ثلاثة شهور ، استطاع بعدها مصالى الحاج أن ينشئ حزبا جديدا هو « حزب الشعب الجزائرى » على المبادئ السابقة التى أعلنها فى جريدة النجم التى تم الغاؤها ، ولسكنه القى القبض عليه من جديد فى أواخر شهر أغسطس عام ١٩٣٧ بتهمة التحريض على أعمال الشغب ضد سيادة الدولة الفرنسية ، وحكم عليه بالسجن لمدة عامين ، مع حرمانه من حقوقه المدنية والسياسية .

وعندما خرج من السجن قررت الادارة الفرنسية فى الجزائر حل « حزب الشعب الجزائرى » فى ٢٩ من سبتمبر عام ١٩٣٩ واعادة اعتقاله من جديد . بل وحكم عليه بعد سنتين بالأشغال الشاقة مدى ستة عشر عاما ، ومنعه من الإقامة بالجزائر مدى عشرين عاما .

ولم يكن مصالى الحاج وحده فى الميدان : كانت هناك جماعات أخرى تسير على طريق الكفاح نفسه .

فقد تكونت جماعة « علماء الجزائر » وهى التى ألفها الشيخ عبد الحميد بن باديس فى عام ١٩٢٨ وأصدر لها جريدة أسبوعية هى « الشهاب » الناطقة باسمها . وكانت هذه الجمعية تهدف الى تحرير الدين الاسلامى من البدع والافهام ، والعمل على نشر اللغة العربية ، ثم اتخفت

أهداف الجمعية صيغة سياسية وطنية بسبب الظروف التي تحيط بالجزائر .

وكانت هذه الجمعية تتفق مع جمعية نجم شمالى أفريقية فى الإيمان بالقومية الجزائرية وفى ضرورة التمسك بالاستقلال التام الذى يتم تدريجيا . هذا مما كان سبباً فى اضطهاد فرنسا لأعضاء هذه الجمعية مثل جمعية نجم شمالى أفريقية .

وعاشت الجزائر على فوهة بركان .

وراح الشيخ عبد الحميد بن باديس ينادى بأن الأمة الجزائرية ستظل حية مابقيت على دينها ولغتها ومعرفه ماضيها .

وقد أنشأ العلماء المدارس الحرة لنشر اللغة العربية والديانة الإسلامية وتخليصها من الخرافات والبدع ، وتعليم الفلسفة والحقوق والتاريخ ، وامتد نشاطهم حتى شمل فرنسا نفسها . وهذا مما أزعج السلطات الفرنسية ، فاتخذت اجراءات مشددة بصدد تعاليم الجمعية فى عام ١٩٣٠ كما صدر منشور ميثيل السكرتير العام لإدارة مدينة الجزائر بعد ثلاث سنوات وبمقتضاه فرضت رقابة دقيقة على العلماء وعلى نشاطهم .

وقام بعد ذلك فرحات عباس عام ١٩٣٦ ليدهم فكرة « الأمة الجزائرية » ويشد من أزرها بدون الدعوة الى الانفصال عن فرنسا . وقال فرحات عباس عباراته المشهورة : « لقد ساءلت التاريخ ، واستجديت الاحياء والاموات ، وزرت المقابر ، فلم يحدثنى أحد عن وجود الأمة الجزائرية ، بل أرانا قد طرحنا آمالنا جانبا ، وربطنا مصيرنا نهائيا بمصير فرنسا فى هذه البلاد . انهم يحدثوننا عن الوطنية والواقع ان ما يريدونه من وراء ذلك هو القضاء على تحررنا السياسى والاقتصادى معا . »

واشتد الاقبال من الشعب الجزائرى على هذه المنظمة الوطنية ، فاستطاع فرحات عباس أن يكون « الاتحاد الشعبى الجزائرى » . كما عقد « مؤتمر اسلامى » حضره ممثلو الأحزاب ، وأصدر قرارا بإعلان أول ميثاق بمطالب الأمة الجزائرية . وكان فرحات عباس فى بادىء الأمر معتدلا فى سياسته ، يعتقد أن ربط مصير الجزائر بعجلة فرنسا أمر ممكن اذا اعترفت فرنسا للجزائريين بالحقوق التى تعترف بها للفرنسيين . ولكنه أدرك خطأه وتحول عن هذه السياسة ومال تدريجيا الى التطرف والدعوة الى الاستقلال التام . فى حين أن مصالح الحاج كان يتخلى عن الثورة .

ومضت الثورة الجزائرية فى الطريق ، وأحمد بن بيللا يعرف انه طريق طويل ليس مفروشا بالورود ، وإنما هو طريق فيه أشواك وعراقيل والسير فيه يتطلب مزيدا من التضحيات والدماء .

وقبل أن ينعقد ذلك المؤتمر الجزائرى بالقاهرة فى ٥ من سبتمبر عام ١٩٥٧ كان بن بيللا قد أقر كل شئ يتعلق بهذا الاجتماع . وقد عين فى أثناء هذا المؤتمر أعضاء المجلس التنفيذى الجديد وهم :

كريم ، بوصوف ، بن طوبال ، عباس ؛ مهري ؛ عيسان ؛ محمود الشريف ؛ والامين الدباغين .

- لقد تقدمت الجزائر خطوة جديدة فى طريق التحرير والاستقلال .
- صحيح أن الطريق مازال طويلا أمام الجزائر .
- ولكنه طويل أيضا أمام فرنسا الظالمة .

وكلما طال على فرنسا الطريق كلما كانت أبعد الى العودة الى الصواب . فهي تسير بخطى سريعة نحو انهيارها ، انهيارها فى جميع النواحي ، الاقتصادية والاجتماعية والحربية والسياسية ، فهذه الحرب المشتعلة فى الجزائر تكلفه فرنسا مبالغ هائلة ، فبينما بلغت تكاليف هذه الحرب فى عام ١٩٥٦ خمسمائة مليار فرنك (حوالى خمسمائة مليون جنيه) نجد أنها بلغت فى عام ١٩٥٧ مقدار سبعمائة وخمسين مليار فرنك .

هذه الارقام الكبيرة كان لها معنى حسابى ، ولها معان أخرى ، لقد خلقت حرب الجزائر توترا فى صميم الاقتصاد الفرنسى ، وهذا ناشئ عن زيادة الواردات لفرنسا كان عليها ان تشتري العتاد الأمريكى الذى يتكلف سنويا حوالى مائة مليار فرنك ، ثم شراء المواد الأولية كالصوف والقطن وشراء المنتجات الجاهزة التى لا تنتجها المصانع الفرنسية مثل العتاد الحربى ، هذا بالإضافة الى تضائل صادرات فرنسا ، فهناك عمليات بيع غير كافية ناتجة عن ارتفاع الاسعار الداخلية وعمليات بيع يعوقها الرواج الداخلى الناجم عن حرب الجزائر .

إذا كانت فرنسا تصر على سياسة العناد ، فستجد أمامها شعبا كاملا قناته لن تلتن لا يعرف اليأس ولا الاستسلام ، ستظل الحرب قائمة وتلور رحاها حتى تسلم فرنسا نفسها بحق الجزائر فى الحرية والاستقلال .

وتقدمت مجموعة الدول الآسيوية الأفريقية بطلب اندراج القضية الجزائرية فى جدول الأعمال للمرة الثالثة فى اجتماعات الأمم المتحدة .

وكل ما تمخض عنه نقاش القضية فى الأمم المتحدة والتصويت عليها هو انها صادقت بالإجماع على لائحة وفاق تسجل عروض المساعى الحميدة من طرف تونس والمغرب وتعبير عن الرغبة فى مشاهدة افتتاح المفاوضات .

وكان شعور أغلبية الوفود فى نيويورك هو أن الأمم المتحدة لا تستطيع أن تجد بنفسها حلا ، تابعا أولا وآخرا لحسن النية المتبادلة الذى يجب أن يتوافر فى الطرفين : فرنسا وجبهة التحرير الوطنى .

والشعب ماضى فى طريقه تشجده همته ظروف السجن الذى يحيط به ، سجن الاستعمار والاستغلال والاضطهاد والجوع والعذاب .

وجيش التحرير ماضٍ نحو هدفه الكبير : سوف يحقق لنفسه ما يريد ، قلوب ممتلئة بالايمان والثقة بالنصر الأكيد والغد المشرق الزاهر مهما طال الأمد .

والهجمات تشتد على جيوش الاحتلال . وتزداد الاعمال الاجرامية والقتل الجماعي للمواطنين الجزائريين . ابن بيللا وزملاؤه في السجن يلاقون فنونا في العذاب ، ينتظرون الاعدام ، وهم على اتصال بالزعماء في الجزائر بل وفي أية بقعة في العالم ، وكان ابن بيللا يستطيع الهرب ، ولكنه سيبقى في سجنه ليتحدى طغيان فرنسا .

بن بيللا يتقو ولم يكره من السجن

وصلت رسالة سرية من أحمد بن بيللا في سجنه الى اخوانه المجاهدين في قلب الجزائر ، في الجبال ، يصف فيها الحياة التي يعيشها هو وزملاؤه ، في سجن «لاسانتيه» بفرنسا .

قال فيها : « انسا نعيش في جو غريب يكتنفه الغموض وتحوطه المؤامرات ، وأصبحنا في كل يوم نتوقع محاولات جديدة للاعتداء على حياتنا . ولكن حياتنا لم تعد تهمنا كثيرا . اننا جنود معكم في المعركة وأي جندي يحتمل أن يسقط شهيدا في أية لحظة . ان كل جندي منا وضع روحه على كفه رهن القضاء ، منذ اللحظة الاولى من اعلان الثورة في أول نوفمبر عام ١٩٥٤ » .

ويقول : «لاتهمنا الاشخاص ، المهم هو أن تستمر الثورة منطلقة لا تتوقف حتى يتحقق النصر ، والاستقلال الذي وعدنا به الشعب» ويكشف أحمد بن بيللا عن سر مثير حول محاولات الفرنسيين التفاوض معه هو وبعض زملائه في داخل السجن . لقد حاولوا اغراءه بقبول حلول لا تتفق مع أهم هدف قامت من أجله الثورة ، وهو الاستقلال . ويقول احمد بن بيللا لزملائه المجاهدين «رفضت أن أدلي اليهم بأي رأى مادمننا سجناء ! »

واستطرد يقول : « . . . وشيء آخر . . لاأنا ولا أى واحد من زملائي له حق تقرير مصير الثورة . . لان في الجزائر شعبا استشهد منه حتى الآن مايقرب من مليون شهيد ، وهذا الشعب وحده هو الذى يستطيع أن يقرر مصير بلاده » .

ويقول احمد بن بيللا ان موقفه هذا كان سببا في كل المتاعب التي تعرض لها هو وزملاؤه في السجن .

الحرمان في السجن . . والعذاب الرهيب . . والسير في الزنزانات طوال الليل والنهار . . والتفكير هناك خارج الأسوار ، على أرض الجزائر هكذا يعيش الابطال الخمسة وراء القضبان بأجسامهم ، ولكنهم يعيشون بأرواحهم ومشاعرهم مع جيش التحرير حيث المعارك التي كانت تدور رحاها على أرض الجزائر . . وكانت مرارة السجن وآلامه . . وقسوة الحراس ، وصرامة الأوامر . . والأخبار التي تؤجج مشاعرهم وتذكى آلامهم . . كانت هذه هي حياة الزعماء في السجن .

ولنعد الى السجن حيث جلس أحمد بن بيللا يقرأ كتابا سياسيا يتناول قضايا العالم ومشكلاته . كان الضوء خافتا ، وكانت نفسيته

مشحونة بالانفعالات ، فالمشاعر تزحم خياله ، وتهز وجدانه . وظل يقرأ وعندما وقعت عيناه على كلمة «مصر» شعر كأن شيئاً خفياً يشد فكره الى الوراء ومرت صور وذكريات عدة أمام ناظريه : وهو يتطلع الى الكتاب السياسى بين يديه ولكن فى خياله كتاباً آخر . . . كتاب سجلت فيه ذكرياته عندما فر من السجن . . . واستطاع أن يصل الى القاهرة . . . فى النصف الثانى من شهر مارس سنة ١٩٥٢ ، ليدير المعركة من القاهرة ويعمل على طلب مساعدتها للثوار ومدهم بالسلاح والعتاد .

تذكر بن بيللا أول مرة صعد فيها الى الدور السادس بعمارة الشربتلى فى شارع ٢٦ يوليو بالقاهرة حيث كان يقيم مع السيدة « بدور مصطفى العمروسى » وكانت تجهل شخصيته تماماً ، وكان وهو بالقاهرة على اتصال دائم بالثوار المجاهدين فى الجزائر وخارج الجزائر . كان يعلم كل شئ عن تطورات الامور على أرض بلاده ، التى اضطر أن يتركها ولاحظت السيدة التى يقيم معها أنه كثير الحركة ، لا يهدأ . . . يقرأ كثيراً . . . مكتبه مزدحم بالكتب ، يدخل ويخرج كثيراً ، ربما عشر مرات فى اليوم الواحد .

لا أحد يزوره مطلقاً - يستعمل التليفون بكثرة ودائماً يدور حديثه باللغة الفرنسية .

لا يرتاد الاماكن العامة ، ولا يتناول طعامه فى المطاعم كان يكتفى بالسندوتشات أولاً بسبب ضيق الوقت ، وثانياً بسبب ضيق اليد .

وقد اقترح عليه أحد أصدقائه أن يشتري سيارة حتى لا يضيع جزء من وقته فى التنقل وركوب الاتوبيس .

فقال بن بيللا : ان الثمن الذى اشترى به سيارة سأحضر به عدداً من البنادق لآخواننا المجاهدين فى الجبال . . . أما الوقت الذى يضيع منى فى التنقل فسأوفره من نومى .

كان أحمد بن بيللا لا يتكلم الا بحسن . . . وتحركاته فى شوارع القاهرة سرية . يسافر فجأة . . . ويحضر - للقاهرة - فجأة . . . ويغيب أحياناً بل ربما شهرين أو ثلاثة . . . ثم يعود ولا يتكلم - كان يفكر أضعافاً يتكلم - يطيل النظر فى الأفق بعينين يخفى وراءهما أسراراً وأسراراً وقصة كفاح شعب بأكمله - حتى ان السيدة كانت تسميه «رجل لا ينام ولا يتكلم» .

كان يتردد - فى بعض الاوقات - على حى الأزهر ، حيث يزور مشهد الحسين ويختلس بعض الوقت ليلتقى بأصدقائه وآخوانه الجزائريين فى «قهوة الفيشاوى» بالقاهرة .

وذات مساء ، خرجت السيدة التى كان يقيم معها ، من احدى دور السينما واشترت احدى المجلات ، قلبت الصفحات ثم تسمرت عيناها على صورة كبيرة مكتوب تحتها «أحمد بن بيللا قائد جيش التحرير الجزائرى» ولم تصدق عيناها ، وأسرعت الى المنزل . . . ووجدت أحمد بن بيللا بالحجرة وعلى الفور قدمت له المجلة . . . ونظر فى الصورة بهدوء ودار هذا الحديث بينهما :

— دى صورتك :

— لا ٠٠٠ يخلق من الشبه أربعين !

وصدقت السيدة « بدور مصطفى العمروسي » كلامه ٠٠ لانه كان يسكن عندها تحت اسم مستعار : «أحمد مازوني سعدون» وأخذ منها المجلة ليقرأ الموضوع وما كاد ينتهي حتى سألها :

— ايه رأيك فيه ؟

— هو مين ؟

— احمد بن بيللا ؟

— انه رجل بطل يدافع عن بلده ٠٠ وعن حق شعبه فى الاستقلال ويضحى فى سبيل وطنه ٠٠ نصره الله .

ومرت الايام ٠٠٠

وشاهدت السيدة صورة أخرى للزعيم احمد بن بيللا فى احدى الصحف يجلس فيها فى وضع معين ٠٠ ان الصورة المنشورة هى الصورة نفسها المعلقة فى غرفته . وقد كتبت الصحيفة : «ان فرنسا ستمنح مليون فرنك لمن يقبض على احمد بن بيللا حيا أو ميتا » .

وعلى الفور — رجعت الى المنزل — ولم يكن موجودا فيه ساعتها وانتظرته وكلها لهفة ٠٠ وطال انتظارها ٠٠ ومر الوقت بطيئا مملا . . . كانت تخشى ألا يعود أحمد بن بيللا الى حجرته ، بعد أن تأكدت أن الشخص الذى يقيم معها هو نفسه احمد بن بيللا . كانت نفسها مشحونة بالانفعالات والأحاسيس ، كانت تجلس شاردة تفكر وتفكر ٠٠ لم يكن الأمر بالشئ الهين ٠٠ ولم يقطع عليها توارد الأفكار والخواطر الا رنين جرس الباب . وعلى الفور أسرع تفتح الباب ٠٠ لتجد أمامها احمد بن بيللا الذى عاد الى المنزل فى ساعة متأخرة من الليل .

وعلى الفور وبلا مقدمات قالت له :

— انت احمد بن بيللا ؟

ولم يغضب أحمد بن بيللا ٠٠ لم يتردد بل قال لها على الفور :

— نعم ٠٠ أنا احمد بن بيللا ٠٠ وده غير رأيك ؟ انت خايفه ؟

— ياسلام ٠٠ أبدا ٠٠ والله انا فرحانة جدا ٠٠ أهلا بالبطلس الجزائرى ٠٠ أنا زى والدتك تمام . انك رجل عظيم ٠٠ ربنا ينصرك !

ولم يتغير شئ فى حياة الزعيم احمد بن بيللا ٠٠ سوى زيادة فى الحرص ودخلت عليه السيدة ذات مرة فى منتصف الليل لتقدم له كوب شاي . وقام بن بيللا من السرير فجأة وهو شاهر المسدس فى وجهها ، فلما تبين أنها السيدة « بدور » وضع المسدس تحت الوسادة ، وعلى الفور قال لها :

— أرجوك — فلتطرقى الباب بشدة قبل دخولك — أنا معاى مسدسى !

وعلى الفور أبدت السيدة تأسفها لما حدث .

وكان احمد بن بيللا لا يكف عن القراءة والكتابة يخرج ويعود بكثرة اتصالات تليفونية مستمرة . كان قائد جيش التحرير يقود الكفاح المسلح المرير ضد الاستعمار من ذلك المكان الهادئ . . . كان يوجه أعظم الضربات الى قوات الاحتلال الفرنسية ، وعيون الاستعمار لا تغفل ، تبحث عنه في كل مكان في العالم . . . تريد رأسه بأي ثمن . . . تدبر الخطط للقبض عليه أو اغتياله . . . ولا تدري انه يقيم هنا !

وبين حين وآخر كان يترك مخبأه الأمين في القاهرة ، ويذهب الى الخطوط الامامية ، هناك في الجزائر .

وفي كل مرة تستقبله السيدة استقبال الأم التي عاد ولدها من الحرب - وذات مرة سافر أحمد بن بيللا الى مدينة طرابلس في ليبيا في مهمة استدعت بقاءه فيها عدة أشهر .

وفي هذه الاثناء كلف احد مساعديه بأن يلحق به في ليبيا . وذهب مساعده الى مدينة طرابلس يحمل في جيبه عنوان احمد بن بيللا - وكانت مفاجأة عندما وجده يعيش في حجرة بدروم في بيت متهدم وأخذ مساعده يتلفت حوله في دهشة : حجرة صغيرة ليس فيها أكثر من سرير صغير فوقه بطانية بالية ، وفي أحد أركان الحجرة طاولة قديمة ، وجهاز راديو يستمع منه الى اذاعات العالم .

ولم يتمالك مساعده الا أن يثور في وجهه قائلاً له :

— لماذا تعيش في حجرة كهذه ؟

ورد بن بيللا : أتريدني أن أسكن في قصر ونحن في ثورة ؟

وقال له مساعده : « البلد محتاجه لك بصحتك لسكى تستطيع خدمتها ! » .

وقال بن بيللا : « اخواننا المجاهدون في الجبال ينامون أحياناً في الطين - فلماذا أكون أحسن حالاً منهم ؟ » ورفض بن بيللا أن ينتقل من حجرة البدروم ، وكان سعيداً لان ايجارها لم يكن يزيد على الجنيهين في كل شهر .

وذات يوم كلف أحمد بن بيللا أحد مساعديه بالاشراف على توزيع معونة الشتاء على بعض الجزائريين من المرضى في إحدى المستشفيات .

وذهب بن بيللا يراقب مساعده في أثناء عملية التوزيع ، وكانت مفاجأة عندما علم أن مساعده يسلم الى كل مريض ستة «غيارات داخلية» وثار احمد بن بيللا في وجهه وقال :

ماهذا ؟ . . ان الشعب الجزائري يموت ، وأنت تسلم كل واحد ستة غيارات ! .

واستطرد يقول بالرغم عنه لانه لايجب أن يتحدث عن نفسه : « كل مأمئلك من غيارات اثنان فقط - ألبس واحدا وأغسل الثاني ! »

ثم يعود أحمد بن بيللا الى القاهرة ليجد كل شيء فى انتظاره يتطلب البت فيه بسرعة .

وكان يحكى أحمد بن بيللا للسيدة قصص التعذيب الوحشية التى يلقاها اخوانه المجاهدون . . عذاب حتى الموت . . كان المجاهد يختار العذاب حتى الاستشهاد دون أن يبوح أو يعترف بأى شيء يفيد الفرنسيين عن تنظيمات جيش جبهة التحرير الجزائرية .

كان يحدثها عن المجاهدين والمجاهدات ، وقصص البطولة التى يقوم الثوار المجاهدون بها فى أرض المعركة ، فى جبال الجزائر ووديانها .

وكان أحمد بن بيللا يعجبه فى السيدة «بدور» مدى خوفها عليه، وحرصها على راحتته وسلامته . قالت له ذات مرة : انها تلاحظ وقوفه أمام «الفتريينات» فى شوارع القاهرة ، وطلبت منه أن يكون أشد حرصا على نفسه .

وابتسم أحمد بن بيللا وهو يقول لها : «لاتخافى . . ربنا موجود !»

وسافر أحمد بن بيللا فجأة الى طرابلس بليبيا فى مهمة سرية . . ولكن فى هذه الرحلة - كانت مفاجأة تنتظره - كانت فرنسا بوساطة جواسيسها لا تكف عن البحث عنه فى أى مكان ، وحينما اهتدت الى المكان الذى يوجد به فى طرابلس ، فى فندق « اكسليور » عهدت السلطات الفرنسية الى عصابة اليد الحمراء بمهمة اغتياله .

كان أحمد بن بيللا ينزل فى احدى غرف الفندق . وتمكن يهودى فرسى من أعضاء العصابة الدخول الى الغرفة ليلا على حين كانت سيارة تنتظره خارج الفندق . ولم يكن بن بيللا قد عاد بعد الى غرفته ، وكانت خطة الاغتيال مدبرة ومدروسة من قبل .

ان مفتاح النور فى الغرفة لا يوجد بجوار الباب كما هى العادة ، ولكن بعيد ، بجوار السبرير . واختفى المجرم بجوار الباب فى الظلام انتظارا لظهور بن بيللا .

وفجأة دخل بن بيللا غرفته ، وتوجه نحو مفتاح النور ، واذا به يتلقى - فجأة - على رأسه ضربة قوية من آلة حادة . فسقط على الارض ، ولكنه تحامل على نفسه عنقما رأى نصل خنجر طويل . . وفجأة هم واقفا وأخرج مسدسه من جيبه واخذ يطلق النار على المجرم ، وفى كل مكان . . فولى المجرم الأدبار .

وفى السيارة التى كانت تنتظره أمام الفندق فر هاربا . ولكن البوليس الليبى أسرع وراءه حتى أدركه قبل أن يصل الى الحدود التونسية بمسافة خمسة عشر كيلو متر ، وحاول أن يقاوم ، وأطلق النار على رجال البوليس . ولكن البوليس الليبى طوقه ، وانهال عليه بالرصاص ، فخر صريعا فى الحال . . وتبين من التحقيق الذى قام به البوليس أن هذا المجرم اسمه « هنرى لوى دافيد » عضو فى جمعية اليد الحمراء التى سبق لها أن اغتالت بعض زعماء توننتس ومنهم فرحات حشاد ، وهادى شاكر .

وتبين أنه دخل ليبيا ست مرات ، قبل أن يقوم بمحاولة اغتيال أحمد بن بيللا .

ومرت أيام ٠٠ وانتهى أحمد بن بيللا من مهمته بطرابلس وعاد الى القاهرة . وذات يوم بينما كان أحمد بن بيللا يسير في شارع قصر النيل انطلقت عليه عدة رصاصات من إحدى السيارات . وكم دامت دهشته عندما رأى أن سيارة دبلوماسيّة هي التي تقوم بهذه المهمة الاجرامية . ولكن القدر كانت له ارادة أخرى . فقد انبطح أحمد بن بيللا على الارض بسرعة عندما سمع صوت الرصاصة الاولى وأخطأته الرصاصات الأخرى . وأبقته لوطنه ولشعبه يكمل دوره على طول الطريق نحو الحرية .

كانت هذه وسائل فرنسا . كانت كل جهودها مركزة في محاولة التخلص من الزعيم أحمد بن بيللا الذي أشعلها عليها حربا لاهوادة فيها هكذا صمم على أن تكون لغة التفاهم مع فرنسا هي لغة الحرب الشاملة ، حتى يجبرها على أن تسارع باعطاء الحقوق لأصحابها دون مساومة ، ودون لف أو دوران .

حتى في السجن ، وأحمد بن بيللا بين يدي فرنسا ، حاولت اغتياله عدة مرات ، حتى بعد أن حكمت عليه هو وزملاؤه بالاعدام دبرت مؤامرة وضح خططها الجنرال «ماسو» قائد قوات البارشوت الفرنسية في الجزائر . بالاتفاق مع «جاك سوستيل» وزير الاستعلامات في حكومة فرنسا وتتلخص الخطة السرية التي وضعت لاغتيال بن بيللا فيما يلي :

يلبس جماعة من جنود البارشوت الذين تحت أمر ماسو ملابس حراس السجن ، وعلى هؤلاء الجنود أن يتقدموا الى مدير السجن بتعليمات مزورة تقضي بنقل الزعماء الجزائريين الى خارج السجن بحجة انهم مطلوبون لاجراء تحقيق معهم .

وفي خارج السجن يتولى جنود البارشوت اغتيال أحمد بن بيللا وزملائه برصاص مسدساتهم .

كان الجنرال ماسو متحمسا لتنفيذ هذه المؤامرة . والسبب أنه يعتقد - وتؤيده في هذا الاعتقاد كل العناصر المتطرفة من المستعمرين الفرنسيين في الجزائر - ان أحمد بن بيللا وبقيّة زملائه المعتقلين في السجن يمثلون العناصر الوطنية بين زعماء الجزائر . وتصور الجنرال ماسو أن اغتيال بن بيللا وزملائه يمكن أن يفسح الطريق أمام بعض العناصر الجزائرية غير المتطرفة للتحول في مفاوضات مع الفرنسيين .

وفشلت هذه المؤامرة اذ استطاعت قيادة الثورة في الجزائر أن تكتشف أمرها قبل وقوعها بأيام في شهر مايو سنة ١٩٥٨ . وكانت تفاصيل التقرير السري الذي تلقتة قيادة جبهة التحرير الوطني عن هذه المؤامرة تقول :

ان الجنرال ماسو استدعى ثلاثة من كبار ضباطه في رتبة الكولونيل، وكلفهم السفر الى باريس وقيادة قوة تضم ١٥٠ جنديا من قوات البارشوت

التي تحت امرته في الهجوم على سجن « لاسانتيه » واختطاف أحمد بن بيللا وبقية زملائه .

وتكشفت المؤامرة بعد وصول الضباط الثلاثة الى باريس وكان أحدهم قد اتصل تليفونيا بمدير السجن ، وطلب اليه أن يصدر أوامره الى الحراس بعدم المقاومة والتسليم .

وتردد مدير السجن ٠٠٠ وخشى على حياته ٠٠٠ ولم يكن منه الا أن اتصل بوزارة الداخلية في باريس طالبا النجدة ٠٠ وقالت له وزارة الداخلية الفرنسية ان جميع قوات الأمن تعمل في المحافظة على النظام بسبب الاضطرابات التي عمت باريس في هذه الاثناء .

وقال مدير السجن : ان الموقف خطير وانه يخشى من وقوع مجزرة في داخل السجن ! ولم تجد وزارة الداخلية قوات اضافية لتمد بها مدير السجن الا كتيبتين أي نحو ١٨٠٠ جندي من قوات يطلقون عليها في باريس اسم « كتائب أمن الدولة » وهي أشبه بقوات بلوكات النظام التي تستخدم للمحافظة على النظام في أي بلد .

وقد بادرت هذه القوات الى محاصرة سجن « لاسانتيه » ومنعت الاقتراب منه . وفشلت الحطة التي وضعها الجنرال ماسو لضباطه الثلاثة، ولم تتم عملية خطف الزعماء الجزائريين من السجن . وياليت الامر وقف عند هذا الحد . فقد سبق أن دبرت فرنسا في شهر يوليو عام ١٩٥٧ مؤامرة أخرى ، بأن أثار الفرنسيون فتنة بين المعتقلين في سجن « لاسانتيه » وتجمع نحو خمسة آلاف منهم في ساحة السجن الكبير وهم يتصايحون بالاحتجاج على المعاملة السيئة التي يلقونها من حراسهم الفرنسيين .

واستعد الحراس لاطلاق الرصاص على هؤلاء المعتقلين واغتيال بن بيللا وزملائه بعبوة رصاصات طائشة ١٠.

ولم يهتم أحمد بن بيللا بهذا التحذير بقدر اهتمامه بالضحايا الذين يمكن أن يسقطوا برصاص حراس السجن تنفيذا لهذه المؤامرة . ولم يكن منه الا أن وقف خطيبا بين المعتقلين الثائرين . وكان هو الذي أعاد النظام الى السجن وأنقذ عشرات الضحايا من الموت برصاص الحراس .

ولما فشلت هذه المؤامرة ، صدرت تعليمات جديدة الى حراس السجن ، وكان غالبيتهم من رجال المخابرات الفرنسية ، وقد ألحقوا خصيصا بالسجن في وظائف الحراس حتى يكونوا دائما عيونا على زعماء الثورة . ويطلق المعتقلون الجزائريون على هؤلاء الحراس اسم « زبانية لاسانتيه » بسبب قسوتهم في تنفيذ التعليمات ، وعمليات تعذيب المعتقلين . وقد روى أحد التقارير الواردة الى قيادة الثورة بالجزائر ، كيف كان هؤلاء الزبانية يتجمعون تحت نافذة زنزانة أحمد بن بيللا ، وكيف كانوا يقذفونها بالطوب والحجارة كان هدفهم أن يشيروا أعصابه . من النوم . وبقيت محاولاتهم « للتحرش » به شهرا كاملا . ولكن أحمد وكانوا يدقون على صفائح البنزين الفارغة تحت نافذته حتى يمنعوه

بن بيللا لم يستجيب لتحديهم . واضطر زبانية السجن الى الكف عن محاولاتهم الصبيانية . .

فرنسا تعاني أزمة حادة . . .

تدهورت حالتها المالية والاقتصادية . . . خطر كبير يهدد عملتها . . أصبحت كل الحلول واهية أمام الازمة الاقتصادية التي تواجهها في عنف وفشلت كل الوزارات المتتالية في الوصول الى حل سليم ليضع نهاية لمشكلات فرنسا واستمرار حرب الجزائر . . . وتكتل الجيش الفرنسي مع الحاكَم العام للجزائر وأنشئت لجان الامن . وتتابعَت الاحداث منذ ١٣ من مايو سنة ١٩٥٨ حتى أول يونيو عام ١٩٥٨ حين تولى « الجنرال ديغول » رئاسة الجمهورية الفرنسية . وكانت أهداف هذه الحركة « الادماج التام بين فرنسا والجزائر » والحيولة دون قيام الحكومة الفرنسية بالمفاوضات مع مسلمي الجزائر . وكان أحمد بن بيللا وزملاؤه يرقبون الموقف باهتمام ويتابعون تطور الاحداث في فرنسا والجزائر معا .

أراد ديغول أن يتبع سياسة جديدة ازاء قضية الجزائر هدفها كسب ود الجزائريين بالتظاهر باتباع خطة اللين فقرر تخفيف جميع أحكام الاعدام ضد الوطنيين الجزائريين واستبدالها بالاشغال الشاقة المؤبدة .

كما تقرر اطلاق سراح ٧٠٠ مواطن جزائري ، والافراج عن مصالى الحاج .

وكان أحمد بن بيللا وجميع المجاهدين يعاملون معاملة سيئة للغاية في سجن « لاسانتية » فقرر بن بيللا الاضراب عن الطعام حتى تتحسن معاملة الفرنسيين له ولزملائه وجميع اخوانه المعتقلين ، وطالب بمعاملتهم كمسجونين سياسيين . وبالفعل استجابت فرنسا لهذه المطالب .

ولم تكن المعاملة السيئة التي لقيها زعماء الجزائر تقف عند هذا الحد فقد حدث مثلا في شهر يناير عام ١٩٥٨ أن توفي والد حسين آية أحمد . الذي كان لاجئا في تونس . وعلى أثر وفاته أرسلت زوجته برقية الى ابنها في سجن لاسانتية تنعى اليه والده . ومزقت ادارة السجن البرقيه . ولم تبلغها اليه . ولم يعرف حسين آية أحمد بوفاة والده الا بعد عدة أشهر عندما تلقى رسالة أخرى وصلت اليه بطريقة سرية من اخوانه المجاهدين في الجبال !

كما أن ادارة السجن منعت عن زعماء الجزائر وصول الصحف والمجلات العربية ، وحرمت عليهم الاستماع الى اذاعات الراديو . وذات يوم قامت ادارة السجن بجولة تفتيشية في حجرات المعتقلين . وكانت مفاجأة حينما عثروا في حجرات المعتقلين على مجموعات كاملة من مجلة « المجاهد » التي يصدرها جيش التحرير في الجبال . واهتزت ادارة السجن ، وكذلك ادارة المخابرات الفرنسية بسبب العثور على هذه المجلة في قلب السجن .

وتمضى الايام عسيرة . . . لا جديد فيها الا شعور القلق والثرقب والانتظار . . . انها حياة السجن التي تبلد الشاعر ، وتجمد الافكار . ولكن هجمات المناضلين على أرض الجزائر تشتد .

و ذات يوم شعر أحمد بن بيللا بمشخص حاد وهو فى حجرتة بالسجن وتبادر الى خاطره أن أحد حراس السجن قد دس له السم فى الطعام . ولم يكن أمامه الا أن يطلب استدعاء طبيب السجن على عجل لاسعافه . وجاء الطبيب ، ولكن بعد ست ساعات كاملة، ليقول : ان حالة بن بيللا تستدعى نقله فورا الى أحد المستشفيات لتجرى له عملية استئصال الزائدة الدودية ورفضت ادارة السجن وقالت اذا كان لابد من عملية فليقم الطبيب بجرائها فى داخل السجن . وأخيرا رضخ الطبيب لأوامر ادارة السجن ، وأجرى العملية الجراحية - وربما لأول مرة فى حياته - فى داخل الزنزانة التى كان بن بيللا مسجوناً بها - بلا تعقيم ، وبلا أية استعدادات طبية .

وفى هذه الليلة ، لم ينم أى واحد من خمسة آلاف سجين من الجزائريين وامتلات بهم ممرات سجن « لاسانتية » .

أخذ كل منهم يبتهل الى الله وهو يصلى ، ان ينقذ حياة الرجل الذى اشترك مع زملائه ، زعماء جيش الجزائر ، فى قيادة الثورة وتنظيمها منذ البداية واستجاب الله لدعواتهم وأجريت لبن بيللا العملية . ولكن بمعجزة ! معجزة أن تنجح عملية جراحية له بهذه الصورة الوحشية !

ومر الزعيم بوضياف بالتجربة نفسها حينما أصيب بمرض صدرى وهو فى السجن . وذلك بسبب رطوبة جو زنزانه التى وضع فيها : لم تكن ترى الشمس لأنها شبه مقفلة . ونصح طبيب السجن بنقله الى إحدى المصحات . ولكن السلطات الفرنسية رفضت ذلك . ولما اشتدت حالة المرض عليه قرر طبيب السجن أن يجرى له عملية جراحية لاستئصال إحدى رئتيه . وأجريت له العملية فى داخل السجن !

وعاش المجاهد بوضياف برئة واحدة تروى قصة الحياة الرهيبة والمعاملة البربرية التى لقيها هو والمجاهدون فى سجون فرنسا .

وبرغم هذه القسوة البالغة ، والحياة الجافة ، والأيام السوداء التى كانت تمر ببطء كان أحمد بن بيللا لا يترك لليأس طريقا الى قلبه ، كانت ارادته أقوى من مؤامرات فرنسا التى تدبر له فى الخفاء لاغتياله ، وكان واثقا من ان حتمية النضال وانتصار الثورة على أرض الجزائر ، أقوى من مزاعم فرنسا وأباطيلها المضللة فان ارادة الشعب هى ارادة الله .

* * *

فالأحداث - على أرض الجزائر - تبلورت . وتردد صدى الثورة فى خارج الجزائر . وازاء هذا رأى مجلس الثورة أن يعلن قيام حكومة جزائرية مؤقتة ، تعترف بها الدول ، وتكون سلطاتها مستمدة من مجلس الثورة ، وتنطق باسمه فى الخارج .

وفى ١٩ من سبتمبر عام ١٩٥٨ أعلن مجلس الثورة تكوين حكومة الجزائر المؤقتة بالقاهرة برئاسة فرحات عباس .

ولكنها كانت حكومة « شكلا » - وبلا سلطة - اذ أن السلطة الحقيقية ظلت فى يد مجلس الثورة حتى بعد أن عهد المجلس الى المجاهد « هواري

بومدين « وزملائه بقيادة جيش التحرير • فالحكومة المؤقتة ، وقيادة جيش التحرير ، كلاهما منبثق من مجلس الثورة الوطني •

أما الكلمات مثل « رئيس حكومة - وزير - قائد - » كلها كلمات لا تعنى فى الحقيقة المضمون المفهوم للكلمة ، كانت فى الواقع « مهام » يعهد بها الى هذا العضو أو ذاك للقيام بها • ولكن الجميع جنود فى جبهة التحرير الجزائرى التى كان شعارها - القيادة الجماعية - والعمل من أجل المجموع - وهو الشعب •

لأحد يفكر لمصلحته الشخصية - الجميع ثوار ••• تنظمهم خلايا ثورية ••• كل شخص مسئول ويخاسب على أعماله ••• لافرق بين رئيس ومرءوس ، هذا هو شعار الثورة الجزائرية • وقد جاء قرار مجلس الثورة بتكوين حكومة مؤقتة ليثبت للعالم أجمع ، ولفرنسا على وجه الخصوص ، أن جبهة التحرير الوطنى ليست جبهة أفرادها جماعة من المتمردين خارجين على القانون ، ولكنها تنظيم شعبى ثورى ، باستطاعته أن يشكل للشعب الجزائرى حكومة ، أثرت أن تختار رئيسها معتدلا مثل فرحات عباس كى يمهّد لبدا المفاوضات مع فرنسا • وأعضاء هذه الحكومة هم :

فرحات عباس : رئيسا لمجلس الوزراء •
كريم بلقاسم : نائب رئيس مجلس الوزراء ووزير القوات المسلحة
أحمد بن بيللا : نائب رئيس مجلس الوزراء
حسين آيه احمد : وزير الدولة
وابح بيطاط : وزير الدولة
محمد بوضياف : وزير الدولة
محمد خيضر : وزير الدولة
الدكتور محمد الامين الدباغين : وزير خارجيه
محمود شريف : وزير الامدادات والتموين
الاخضر بن طوبال : وزير داخلية
عبد الحفيظ بوصوف : وزير المواصلات
عبد الحميد مهرى : وزير شئون شمالى افريقية
الدكتور احمد فيرنسيس : وزير المالية والاقتصاد
محمد يازيد : وزير الاستعلامات
يوسف بن خدة : وزير الشئون الاجتماعية
أحمد توفيق المدنى : وزير الشئون ووزير الثقافة •

كما تضم الحكومة السادة : الامين فان - وعمر الصديق - ومصطفى استامبولى •

وتقرر أن تكون الحكومة المؤقتة لجمهورية الجزائر مسئولة أمام المجلس الوطنى للثورة الجزائرية ابتداء من الساعة الواحدة من بعد ظهر يوم الجمعة الموافق ١٩ من سبتمبر عام ١٩٥٨ بتوقيت الجزائر •

وازاء حوادث الاغتيال العدة التى تعرض لها الزعيم أحمد بن بيللا وزملاؤه ، وحياة القسوة والعذاب التى لقيها الزعماء الخمسة ، قرر مجلس وزراء فرنسا نقل بن بيللا نائب رئيس حكومه الجزائر الحرة وزملاؤه من سجن لاسانتية الى جزيرة « ايكس » فى عرض البحر . ووضعهم تحت المراقبة الشديدة ، محافظة على حياتهم التى تعرضت لمؤامرات المتعصبين الفرنسيين ، أمثال الجنرال « ماسو » وغيره .

أحيطت عملية نقل أحمد بن بيللا وزملائه بسرية تامة ، من سجن « لاسانتية » فى باريس الى جزيرة « ايكس » القريبة من شواطئ فرنسا .

فى الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة مساء جاءت عربة بوليس رقم ٤٠٣ لتقف أمام باب السجن بضعة دقائق قبل أن يسمح لها بالدخول وفى العاشرة والرابع جاءت سيارة بوليس مملوءة بالجنود المسلحين بالمدافع الرشاشة . ثم اجتازت باب السجن لتقف فى بداية الممر الموصل الى الداخل .

وفى الساعة العاشرة وست عشرة دقيقة ، وصلت سيارتان من سيارات البوليس تحرسهما كوكبة من الدراجات البخارية ودخلت الى الممر الموصل الى فناء السجن الداخلى .

وفى العاشرة والدقيقة الثانية والثلاثين أخلى الطريق الموصل الى السجن تماما وخرجت من الباب سيارتان من سيارات البوليس لكى تنضموا الى سيارات أخرى كثيرة . كانت تقف أمام الممر وكانت هذه السيارات تكون فى مجموعها ثلاثة أرباع فرقة كاملة من فرق الطوارئ .

وانطلقت السيارات فى موكب يتكون من ست سيارات « بوليس » تتبعها ست سيارات أخرى محروسة بست دراجات بخارية للمحافظة على الامن . وكان الجنود فى هذه السيارات يشهرون أسلحتهم السريعة الطلقات .

وفى الساعة العاشرة والدقيقة الخمسين خرجت العربة السوداء رقم ٤٠٣ من السجن وبدأخلها خمسة رجال يلبسون معاطف فاتحة اللون . وكانت تتجمد عليهم أنظار فرقة من البوليس . . انهم : أحمد بن بيللا وزملاؤه الأربعة . وقد سار بهم الموكب المسلح حتى الشاطئ الفرنسى على المحيط الاطلنطى حيث كانت فى انتظارهم احدى السفن الحربية الفرنسية التى تولت مهمة نقلهم الى المنفى الجديد فى جزيرة ايكس . كما نقلت أربعة كلاب متوحشة ومدربة الى الجزيرة لمنع تنفيذ اية خطة لتحرير المعتقلين والزعيم أحمد بن بيللا على الخصوص .

ولكن هذا المنفى الجديد لم يقف حائلا أمام أحمد بن بيللا ومتابعته لتطور الاحداث فى الجزائر ، بل والمشاركة فيها بعقله وفؤاده . فقد امتلأ قلبه بالامل . وأيقن « ان الحق لا يمكن ان تقهره اباطيل فرنسا ومزاعمها . . » حيثما هب العالم المحب للسلام . . وفى مقدمته الذين يؤيدون قضية الجزائر فى عاصفة للسلام قوية لاستنكار أعمال فرنسا

والمطالبة بوقف اعدام البطلة المجسّاهدة « جميلة بوحيرد » وتدخل شخصيات عالمية دولية طالبة العفو عنها . ومن هذه الشخصيات : جمال عبد الناصر - وخورشوف - وأيزنهاور - وملكة بريطانيا اليزابيث - ونهرو - وسوكارنو - وهمرشولد سكرتير عام الأمم المتحدة .

وفي شهر مارس عام ١٩٥٨ خففه حكم الاعدام الى السجن المؤبد . واضطرت فرنسا ان ترضخ لصوت السلام القوي . وفي الواقع ، كان احمد بن بيللا يدرك ان استنكار العالم اجمع لاعمال فرنسا هذه انما هو في الواقع نصر للقضية الجزائرية العادلة .

* * *

فرنسا وقعت في عدة مأزق لاسبيل الى الخلاص منها . . .

واحمد بن بيللا يدرك أن فرنسا في طريقها نحو الانهيار التام . . .

و**ديجول يأتي للحكم** لينقذ فرنسا من مشكلة الجزائر . . .

لقد أصبح رئيسا للجمهورية الخامسة الفرنسية منذ أول يونيو ١٩٥٨ وسيحاول أن ينهي أزمة الجزائر التي دوخت الذين سبقوه .

ان حركة ديجول تهدف الى الادماج التام بين فرنسا والجزائر والحيلولة دون قيام الحكومة الفرنسية بالمفاوضة مع مسلمي الجزائر .

بدأ ينفذ سياسة تتسم بالالتواء والغموض . كان كثير الاشارة في تصريحاته الى قضية الجزائر . ويعترف بكل صراحة بأن الجزائر ولاية فرنسية عبر البحر المتوسط .

وقال ديجول ان للجزائر وضعاً خاصاً في بناء سياسي يقوم لربط فرنسا بالجزائر وممتلكات ما وراء البحار .

وقال انه ابتداء من ذلك اليوم لا يوجد بالجزائر سوى فرنسيين يتمتعون بالحقوق نفسها . وبعد رحلة ديجول الى الجزائر عرض الدستور الجديد للاستفتاء .

وعرض الدستور على الناخبين لقبوله أو رفضه دون الاشارة الى حق الاستقلال . ولم تفعل فرنسا شيئاً جديداً عندما تعاونت مع سلطاتها الاستعمارية في الجزائر فقامت بتزوير نتائج الانتخابات التي وصلت الى ٩٥٥ في المائة ، قبلوا الدستور على حين رفضه ٥٤ في المائة !

ودخلت جبهة التحرير الجزائرية معركة جديدة : انها تبغى اثبات كيائها أمام ادعاءات ديجول ومشروعاته الملتوية .

اصدق بن بيللا وزملاؤه وقيادة الجبهة الاوامر بخطة جديدة . أثبتت الجبهة كيائها بطريقة ايجابية أذهلت الرجعية الفرنسية . فقد انتقلت الحرب سريعاً الى أراضى فرنسا ذاتها . وسوف تحاول الجبهة القضاء على « الرجل المعجزة » الذي جاء ليقضي على الثورة الجزائرية ويضع حداً لافناء

الجيش الفرنسي في الجزائر : ستكون الجزائر شعلة تحرق من يقف امامها يعترض طريقها نحو الاستقلال .

كان دييجول يحاول ان يسوى قضية الجزائر تسوية نهائية وان ينال ما يستطيع من الجزائر ، قبل ان يضع حلا . ولذلك رأينا سياسة دييجول ازاء قضية الجزائر تمر بمراحل كثيرة نجلها في أربع نقط . ونستطيع أن نقول ان سياسته اتسمت بالتراجع الى الوراء رويدا رويدا أمام تصميم الشعب الجزائري على الاستقلال والحرية .

ففي المرحلة الاولى : « الجزائر فرنسية » وحاول دييجول ان يسوى قضية الجزائر على هذا الاساس ، بل وأراد أن يحقق السلام في الجزائر على أساس يرضى به كبار المعمرين المستوطنين في الجزائر ، ولهذا لجأ الى محاولة خداع قادة الثورة الجزائرية بتظاهره الكاذب ، وخير دليل على ذلك هو خطابه الذي ألقاه في ٣ من اكتوبر عام ١٩٥٨ وقال فيه : « ... أقول متوجها الى الذين يطيلون أمد الحرب في الجزائر ، لماذا القتل ؟ يجب أن نعيش . لماذا التهديم ؟ يجب أن تبنى . أوقفوا هذه المعارك . وستجدون السجون تفرغ والأهل يزدهر . والمستقبل يفتح للجميع ... »

وكان دييجول يفكر في انهاء الحرب في الجزائر على أساس استسلام جيش التحرير دون مفاوضات . ولم يكتف دييجول بهذا بل ردد هذه الفكرة في مؤتمره الصحفي الذي عقده في ٢٣ من اكتوبر عام ١٩٥٨ حينما قال : « ... على الذين بدعوا القتال ان يوقفوه ... عليهم ان يعودوا الى عائلاتهم ، وعلى قادتهم ان يتصلوا على الفور بقادتنا العسكريين بوساطة رفع العلم الأبيض ! »

والمنظمة الخارجية للثورة ماعليها الا أن تتوجه الى سفارة فرنسا بتونس أو الرباط ، لكي تضمن نقلهم الى فرنسا . كي يبحثوا شروط الاستسلام في النطاق الفرنسي ، تماما كما يتوجه الفرنسي في الخارج الى سفارته عندما يحتاج اليها . »

* * *

موقف دييجول هذا كان يفعل في نفوس الثوار فعل السحر . لقد اختاروا وسيلة القوة ، وسيلة الحرب التي أعلنتها الشعب الجزائري على فرنسا في أول نوفمبر عام ١٩٤٥ ليجبر فرنسا على الاعتراف بالحق : حق شعب الجزائر في الاستقلال .

وفي هذا الجو المشحون بالمتناقضات (فرنسا مصممة على أن الجزائر فرنسية وقطعة منها - والشعب الجزائري مصمم على الاستقلال) في هذا الجو السياسي المضطرب كانت قضية الجزائر مطروحة أمام هيئته الامم ، لبحث الطلب المقدم من كتلة الدول الافروأسيوية بضرورة ادراج القضية الجزائرية في جدول الاعمال « بالدورة الثالثة عشرة للجمعية العامة للامم المتحدة عام ١٩٥٨ » .

ومنذ وقت قريب كانت الحكومة المؤقتة الجزائرية قد تشكلت برياسة

فرحات عباس وقد عرض ديجول على الجزائريين مشروع «سلم الشعب» الذي رأت فيه الوفود في هيئة الأمم دليلا صادقا على تحسين الظروف . أما الجزائريون فقد رفضوا مثل هذا المشروع الذي كان في باطنه يحمل معنى أعمق من هذا . فالجنرال ديجول كان يريد تحقيق السلم في الجزائر على اساس استسلام جيش جبهة التحرير . وهذا المشروع المضلل لا يحمل سوى هذا المعنى .

وقد فاز الاقتراح - المقدم من كتلة الدول الافروآسيوية - في اللجنة السياسية بأغلبية بسيطة ، وهو يطلب « ضرورة الاعتراف بحق الاستقلال للشعب الجزائري والتوصية بفتح باب المفاوضات على وجه السرعة » .

ولكن هذا المشروع بالرغم من تصديق اللجنة السياسية عليه ، لم يحصل على ثلثي الاصوات حين عرض على الجمعية العمومية . والجدير بالذكر أن « هايتي » في هذه الدورة تقدمت بتعديلين الاول : يقضى بتعديل عبارة « . . حق الشعب الجزائري في الاستقلال » وجعلها « الاعتراف بحقوق الشعب الجزائري للتصرف في مصيره بنفسه » والثاني : ينص على أن « الحكومة الفرنسية - وقادة جبهة التحرير الجزائرية - قد اظهروا رغبتهم في الشروع في مفاوضات » . وقد سجل المشروع الثاني الذي دفع بالقضية الجزائرية خطوة الى الامام في المجال الدولي .

* * *

عناد شديد ومزير . . . عناد الاحرار لن يلين . . أما ديجول فكان لابد أن يتراجع وهذه هي المرحلة الثانية من سياسة ديجول ازاء الجزائر :

كانت سياسة ديجول تتسم - كما أوضحنا - بالغموض والالتواء ومحاولة انقاذ ما يمكن انقاذه أمام ثورة الشعب الجزائري ، الذي آمن بأن الخط المستقيم هو أقصر الطرق « فأقصر الطرق أمام الجنرال ديجول ، أن يمنح الجزائر الاستقلال التام ، القائم على أساس وحدة التراب الجزائري وخير دليل على سياسة ديجول هو تصريحاته وخطبه ومؤتمراته الصحفية حول قضية الجزائر وكلها تتسم بطابع « اللف والدوران » والغموض والالتواء .

ففي تصريح قاله في ٨ من شهر يناير عام ١٩٥٩ : « ان الجزائر ستكون لها مكانة ممتازة داخل دول المجموعة » .

وهذا التصريح برغم ما يتسم به من غموض الا أنه يحمل معنى عميقا وهو تراجع ديجول عن صلابته وآية الذي تمسك به في مرحلته الاولى من سياسته .

اضطر ديجول للتخلي عن الفكرة المزمنة القائلة بأن الجزائر فرنسية وانها قطعة من فرنسا عبر البحر المتوسط .

والجدير بالذكر ان « بلدان المجموعة » قد صوتت ضد « سياسة الفرنسية لفائدة الحكم الذاتي داخل المجموعة » .

ومعنى هذا ان « دول المجموعة » تريد أن تسلك سلوكا ذاتيا وتنتهج

سياسة تتمشى مع حتمية طبيعتها وظروفها وعلى هذا الاساس اعترف دييجول بأن الجزائر ستكون لها مكانة ممتازة بين دول المجموعة .

وفى مؤتمر صحفى بتاريخ ٢٣ من مارس عام ١٩٥٩ نطق دييجول بهذه العبارة :

« ... يجب الوصول فى يوم من الايام الى المحادثات » . فسجل دييجول بذلك خطوة أخرى فى الانفصال وبأن الجزائر جزائرية ، عندما اعترف بأن المكانة الممتازة داخل المجموعة يجب أن تكون وليدة محادثات .

ولكن برغم هذا ، فإن دييجول ظل مصرا على طريقة السفارة الفرنسية ، يرفض كل اتصال مع مبعوثى جبهة التحرير فى بلد محايد - لانه فى الواقع كان يغالط تطور الاحداث . لا يريد الاعتراف بمنظمة جبهة التحرير الجزائرية لأنها كما يزعم لا تمثل الشعب الجزائرى . وتوالت الادلة على سياسة دييجول فى هذه الفترة بأنها تتسم باللف والدوران أو اللعب على الحبلين !

ففى يوم ٢ من مايو سنة ١٩٥٩ أدلى دييجول بحديث صحفى « لبيير لافون » مدير صحيفة « ليكو دوران » فقال دييجول : « ورفضت النطق بكلمة « الادماج » لانهم حاولوا فرضها على ! » (وهو يقصد بهذا أن يرضى المتطرفين الاوربيين) اذ يتساءل : « ما هو المعنى السياسى لكلمة الادماج »

ويرد قائلا : « ان كان يعنى ان الجزائر فرنسية فلاحاجة اذن الى ذكره ما دامت الجزائر فعلا فرنسية ! » وفى الواقع كان دييجول يريد بسياسته هذه أن يضرب عصفورين بحجر واحد : أراد أن يستميل كبار المتطرفين الاوربيين باقناعهم بأنه لم يتخل عن مبدأ الجزائر « فرنسية » وكان قائد جبهة التحرير يتابعون الموقف بحرص شديد ، بعد أن لمسوا مدى تلهف دييجول وحرصه على وضع حد لحرب الجزائر

وبرغم أن أحمد بن بيللا كان فى سجنه الجديد الذى نقل اليه مع زملائه فى عرض البحر فى جزيرة ايكس الا أنهم كانوا على اتصال دائم بجبهة التحرير فى الجزائر . وظل بن بيللا يدير معارك القتال وهو داخل السجن . وفشلت فرنسا كل الفشل فى أن تعزل بن بيللا - الرأس الملتهب - عن شعب الجزائر الذى التحق كله بالخلايا الثورية العاملة فى الجبهة : فى الجبال والمدن والقرى ، وفى كل مكان .

وتركزت سياسة جبهة التحرير فى هدفين :

الاول : تشديد عمليات الهجوم على معسكرات الفرنسيين وانزال أكبر خسائر ممكنة بقوات الاحتلال .

الهدف الثانى : رفض التفاوض مع فرنسا ، الا على أساس الاستقلال ، مع وحدة التراب الجزائرى ، وعدم قبول شرط وقف اطلاق النار الا بعد اقرار هذا المبدأ .

المرحلة الثالثة : لقد خاب ظن الجنرال دييجول الذي جىء به كي يضع حدا لحرب الجزائر ، ويحقق السلام على أرضها . خاب ظنه في انهيار الثورة بسرعة . وأدرك - متأخرا - أن التقارير التي وافاه بها الجنرال « شتال » والتي تتضمن أن الثورة الجزائرية وشيكة الانهيار من الناحية العسكرية ، تقارير لا تقوم على حقائق واقعية .

فما كان من دييجول إلا أن تراجع خطوة ثالثة الى الوراء عن موقفه الاول ، وأعلن « في ١٦ من سبتمبر عام ١٩٥٩ » عن انتهاج سياسة جديدة تقوم على أساس « تقرير المصير » ولكن - بطريقته - أراد أن يخدع الرأي العام العالمي ، ويخدع في الوقت نفسه جبهة التحرير الجزائرية ، ولكنه في الواقع كان يخدع نفسه ، إذ أراد دييجول أن يكون « تقرير المصير » على أساس وقف إطلاق النار من جانب جبهة التحرير الجزائرية . وفي الوقت نفسه لم يكن يقصد أن يكف جيش فرنسا بالجزائر عن إطلاق النار ، بل يستمر في القيام بمهمته وهي المحافظة على السلام وبقاؤه على أرض الجزائر وكذلك القيام بمهمة الدفاع عن وجوده إذا لزم الامر .

وكان دييجول يقصد من وراء هذه السياسة تهيئة ظروف جديدة تعزز جيش فرنسا في الجزائر وتوفير سلاح نفسي ودبلوماسي يعزز السلاح العسكري في محاولات التعجيل بالقضاء على الثورة الجزائرية

وكان دييجول يريد أن يخدع الرأي العام المحب للسلام والمناصر للحريات والمطالب بتصفية الاستعمار بجميع أشكاله وألوانه ، في العالم فتظاهر باستجابة الرأي العام العالمي بدون أن يتخلى عن سياسته . وكان دييجول يعتقد أن الرأي العام العالمي ستعلق بذهنه - من أول وهلة - فكرة « تقرير المصير » دون أن يلقي بالا للقيود التي تصاحبه ، ومن بينها تقسيم الجزائر - في حالة التصويت للاستقلال ، تجزئتها على أساس عنصري طائفي في حالة تشاركها مع فرنسا ، وبقاء الاقتصاد - والتعليم العالي - والدفاع - والسياسة الخارجية في يد فرنسا .

وهناك سلاح دبلوماسي نافذ يمكن فرنسا من مواصلة الحرب في الجزائر من ناحيتها - بحجة الدفاع عن كيائها في الجزائر - إذا ما استمرت جبهة التحرير الجزائرية في عملياتها الحربية ، وبحجة أن « الخصم » هو الذي رفض التفاوض في نطاق « تقرير المصير » .

وفي الواقع كان دييجول يريد أن يجعل هزيمة الثورة الجزائرية عسكريا شرطا أساسيا لتحقيق مبدأ « تقرير المصير » وهو في هذه المرحلة - الثالثة - من سياسته يدعو الى التفاوض ، وفي الوقت نفسه يضع المراقيل أمام زعماء وقادة جبهة التحرير الجزائرية ، محاولا بذلك إلقاء تبعة استمرار الحرب ونتائجها على عاتق الجبهة .

وفي دورة الامم المتحدة الرابعة عشرة لعام ١٩٥٩ ، تقدمت مجموعة الدول الاسيوية الافريقية بطلب للجمعية العامة بأن « تسجل بارتياح أن حق تقرير المصير قد قبل كأساس لحل المشكلة الجزائرية من جانب الطرفين المعنيين ، وتدعوها للدخول في مباحثات ، لبحث شروط مبدأ تقرير المصير ، وكذلك ترتيبات وقف إطلاق النار »

وقد تقدمت مجموعة الدول الافروآسيوية بتسجيل هذا الطلب بعد أن قبل رئيس الحكومة المؤقتة « فرحات عباس » بمبدأ تقرير المصير ولكن بشروط يراها هو . ولكن هذه « اللائحة » سقطت برغم ذلك حينما عرضت على اللجنة السياسية إذ أنها لم تحصل الا على ٣٨ صوتا . مقابل ٢٦ صوتا ، وامسك ١٧ عضوا عن التصويت وجملة القول أن انتقال صوتين اثنين فقط أو اقتراع خمسة من المسكين كان كافيا لترجيح الكفة ، والحكم على فرنسا .

ولكن هناك في الجزائر ، كان لجهة التحرير الجزائرية موقف آخر ازاء سياسة ديغول ففي الجلسة التي عقدتها الجبهة يوم ١٩٥٩\٩\٢٨ تقرر رفض المشروع الذي يتسم بالفموض ويقوم - في الواقع - على اساس التفاوض بين عدوين أحدهما منتصر والآخر منهزم . فما كان من المجاهدين الجزائريين الا أن استأنفوا هجماتهم على معسكرات جيش الاحتلال بعد أن ايقنوا أن وسيلة التفاهم مع فرنسا هي الحرب ، هي مقابلة القوة بالقوة ، ورفض كل مساومة حول الاستقلال على اساس وحدة التراب الجزائري .

ولكن ديغول انتهز فرصة الاعداد لاجتماع الاقطاب واهتمام الرأي العالمى به وحينما أدرك أن سياسته أو بمعنى أدق « لعبته » أوشكت أن تفتضح سارع الى وضع تصريحات أخرى سماها « المطابخ العسكرية » وذلك في يوم ٤ من مارس عام ١٩٦٠ والتي قال فيها للعسكريين :

« يجب أن تتيقنوا أننا مازلنا في الجزائر لمدة طويلة جدا . واننا لن نسوى شيئا قبل انتصارنا العسكرى . وأنه يجب أن تبقى فرنسا في الجزائر . فأنتم تخاربون من أجل أن تبقى فرنسا في الجزائر . »

واستمر ديغول في سياسته التي ترفض التفاوض السياسى الحقيقى الى نوفمبر عام ١٩٦٠ . وحدث في هذه الفترة تطور جزئى خفيف ، وهو مطالبة ديغول بوقف العمليات الفدائية قبل انشروع فى التفاوض .

وقد أكد ديغول تمسكه بهذه السياسة عندما أعلن فى ندوته الصحفية يوم ٥ من سبتمبر عام ١٩٦٠ الاعتراف بنفوذ جبهة التحرير « ولكن ليس على كل الجزائر » . وأصر على الفصل بين محادثات ايقاف القتال مع الجبهة ، والمحادثات السياسية مع « كل الاتجاهات » واللجنة نفسها سجلت خلال رحلته فى منطقة الالب فى اول أكتوبر عام ١٩٦٠ وتصريح ٤ من نوفمبر من العام نفسه عندما نطق لأول مرة بعبارة « الجمهورية الجزائرية » التى سستوجد فى المستقبل . ولكن هذا الاعتراف وضعه ديغول فى نطاق الحرب النفسية التى تهدف الى فصل السكان عن الثورة ، كما يدل على ذلك اعلانه فى التصريح نفسه عن « تحقيق الجزائر الجزائرية مع الجزائريين فى الجزائر » أى رفض التفاوض مع حكومة الثورة .

لقد بحث ديغول عن مخرج فلم يوفق الا الى اثاره كل سكان افريقية بتجاربه الذرية فى صحراء الجزائر . وتبخر مع الدخان المتصاعد

من رمال الصحراء كل أمل لديجول في ضرب الحصار الخانق على الثورة الزاحفة التي سجلت أهدافا عدة رائعة . ففي هذا الوقت كان الشعب الجزائري يكافح ، والشعوب الافريقية كلها تناضل ، من جبال الجزائر الى احراج الكونغو الى ادغال انجولا الى غابات رواندا اورندي الى شوارع شاربفيل في جنوبى افريقية : انه كفاح يؤكد ان مثل مؤتمر برلين في عام ١٨٨٤ والذي تم فيه تقسيم افريقية بين الدول المشتركة فيه ، كما يتم توزيع الغنيمة المفتصة بين كبار قطاع الطرق ، ان هذا المؤتمر لن يتكرر ثانية ، وأن لاسيادة من الآن في افريقية الا للافريقيين .

شعر بن بيللا ببعض الرضا عندما أقرت الامم المتحدة في دورتها الخامسة عشرة حق الشعب الجزائري في تقرير المصير ، بل ايضا حقه في الاستقلال .

كان يؤمن هو وزملاؤه جميعا بأن طريق الكفاح والحرب والدماء هي الطريق الأمثل للحصول على الاستقلال من فرنسا ، ولكنهم جميعا يؤمنون بميثاق الامم المتحدة والدور الذي يمكن أن تؤديه هذه الهيئة العالمية في قضية الجزائر .

تقدم ٢٤ بلدا أفروآسيوى بمشروع قرار ينص على وجوب اشراف الامم المتحدة على كل عملية استفتاء ، وايدت هذا المشروع أمام اللجنة السياسية بعض الدول وعارضت بعضها ، وامتنع البعض الآخر عن التصويت .

وأدخل على مشروع القرار تعديل ، باضافة فقرة تنص على ما يأتى :

« توصى الجمعية العامة باجراء استفتاء في الجزائر تحت اشراف الامم المتحدة ، استفتاء يمكن الشعب الجزائري من أن يحدد مصير بلاده بكل حرية » .

وصادقت الامم المتحدة على اللائحة المقدمة ، وبذلك خُطت القضية الجزائرية خطوات كبيرة الى الامام .

فالامم المتحدة أقرت بأن الوضع الحالى في الجزائر يكون تهديدا للسلم العالمى مما أدى بها الى رفض وجهة النظر الفرنسية القائلة بأن القضية الجزائرية قضية فرنسية داخلية .

واعترفت الامم المتحدة بأن هناك طرفين في النزاع هما الحكومة الفرنسية والحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية ، وذلك عندما أقرت بأن الطرفين المعنيين قد قبلوا حق تقرير المصير كأساس لحل المشكلة الجزائرية .

كما اعترفت الامم المتحدة ليس فقط بحق الشعب الجزائري في تقرير المصير وانما أيضا بحقه في الاستقلال .

وحكمت الامم المتحدة على كل مشروع فرنسي يرمى الى تقسيم الجزائر وذلك عندما أوصت باحترام وحدة وسلامة التراب الجزائري.

وساندت الامم المتحدة موقف الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية حين ذكرت بأنه « من المحتم تحديد ضمانات ناجحة فعالة حتى يمكن تقرير المصير بعدالة ونجاح » .

وصرحت الامم المتحدة عن نيتها بالاضطلاع بمسئولياتها في الضمانات ونزاهة الاستشارة الشعبية ، وذلك حين سامت جدلا بأن على المنظمة الدولية مسؤولية المساهمة في تحقيق المصير بعدالة ونجاح.

الافراج عن بن بيللا

أصبح للجزائريين بفضل الثورة وعى لم يكن موجودا من قبل .
هكذا اعترف دييجول بقوة الشعب الجزائري بعد مظاهرات ١٠ من
ديسمبر عام ١٩٦٠ ، مع أنه كان قبل ذلك بأربع وعشرين ساعة يشيد
بدور الجيش الفرنسي في تحقيق اتّاحى بين الجزائريين والاوربيين .
لقد كانت هذه المظاهرات التى قام بها الشعب عاملا حاسما فى حمل
دييجول على التخلّى عن سياسة « تحقيق الجزائر الجزائرية بدون
الجبهة » فقد أكدت له أن محاولاته السابقة لم تنجح فى فصل السكان
عن الثورة ، بل ان الثورة هى التى نجحت فى تجنيد الجماهير وراءها
بكيفية لم يسبق لها نظير بين أمم الارض قاطبة .

واستمر دييجول فى سياسة التهرب من التفاوض الحقيقى مع
الحكومة الجزائرية ، واحتفظ فى بدء المرحلة الرابعة من سياسته ازاء
الجزائر بإمكانات اللعب والمناورة عندما أقام استفتاء يوم ٨ من يناير
عام ١٩٦١ على أساس متناقض : انتهاء الحرب بوساطة « المقابلات
السلمية » من جهة ، أى بالتفاوض ، ومن جهة أخرى وضع قاعدة
« شرعية » لتنصيب هيئة تنفيذية فى نطاق فكرة الجزائر الجزائرية
الموجودة فى المرحلة السابقة .

وأعلن دييجول فى خطاب له القاه فى فبراير عام ١٩٦١ لأول مرة
بأنه يسلم باندولة الجزائرية التى يريد لها الجزائريون ، والتى ستكون
مستقلة فى الداخل والخارج .

وعلى اثر هذا الخطاب بدأت الاتصالات السرية من الحكومتين
للتمهيد الى مفاوضات ايفيان الاولى التى بدأت فى ٢٠ من مايو عام
١٩٦١ واستمرت الى ١٣ من يونيو عام ١٩٦١ ثم توقفت بسبب مناورات
فرنسا داخل قاعة المفاوضات واصرارها على فصل الصحراء
الجزائرية عن الجزائر ، واصرارها على منح الجنسية المزدوجة للأقلية
الاوربية فى الجزائر . مما يجعل منها دولة داخل دولة ،
وتهديدها بتقسيم الجزائر فى الشمال اذا لم ترضخ حكومة الثورة
لشروط فرنسا التعسفية فيما يتصل بمشكلة الأقلية الاوربية ووحدة
التراب الوطنى ، ووحدة الشعب الجزائرى ، كذلك اصرار فرنسا على
الاحتفاظ ببعض القواعد العسكرية الى الابد .

كل هذه العوامل أدت الى اخفاق مفاوضات ايفيان ، فقد كان
دييجول يريد استقلالا شكليا مزيفا محاطا بقيود وسلاسل تجعل منه
مهزلة مضحكة ، وبالطبع أدى هذا الموقف المتعنت من طرف فرنسا
الى تأجيل المفاوضات الى أجل غير مسمى .

انه العناد نفسه والمكابرة من جانب دييجول . أليس هو الذى طلب من قادة الثورة الجزائرية فى نوفمبر عام ١٩٥٩ التوجه الى باريس للبحث فى شروط وقف اطلاق النار ؟ ويومها اجابته الحكومة الجزائرية فى ٢٠ من نوفمبر بتعيين الوزراء الجزائريين المعتقلين فى فرنسا وهم : بن بيللا وبوضياف وبيطاط وخيضر واية أحمد ، للتفاوض مع فرنسا باسم الثورة الجزائرية ، غير أن دييجول رفض ذلك بدعوى أنه يريد التفاوض مع المقاتلين فى الجزائر لا مع المعتقلين فى السجون . وكانت مفاظة من دى جول الذى يعرف أن هؤلاء يشرفون على المارك الدائرة فى كل لحظة على أرض الجزائر .

ولم يسلم دى جول بالاستقلال الكامل فى الجزائر . ان سياسته تبذل مجهودات كبيرة للاحتفاظ بقواعد الاستعمار الاقتصادى فى الجزائر . وعرفت قيادة جبهة التحرير كيف تضغط على دى جول وتجبره على الرضوخ تحت ضغط الكفاح المسلح ونضال الجماهير الجزائرية .

وقامت مظاهرات ضخمة يوم ٥ من يوليو عام ١٩٦١ ، فى الجزائر ، فاضطرت الحكومة الفرنسية يوم ٢٠ من يوليو ان تستأنف المفاوضات من جديد فى قصر لوجران قرب الحدود السويسرية بين وفد الحكومة الجزائرية ووفد فرنسا .

ولم تستمر هذه المفاوضات هذه المرة أكثر من أسبوع ، قطعت نظرا لاصرار فرنسا على فصل الصحراء الجزائرية عن الجزائر . فقد سلمت بوحدة الجزائر فى الشمال ، واعتبرت الصحراء مشكلة قائمة بذاتها ستسوى فيما بعد بين الجزائر المستقلة وفرنسا .

وقد انتظر دييجول من قطع مفاوضات لوجران ، أن يجسر بعض المتاعب لحكومة الثورة فى الميدان الداخلى على الأخص . ولكن نضج الشعب كان من العمق والشمول بحيث ظهرت مسئولية الاستعمار الفرنسى فى توقف المفاوضات واضحة .

ويبدو أن الجنرال دييجول يشس من خداع الشعب الجزائرى وتيقن أنه من العبث صرفه عن ثورته . فهو فى خطابه يوم ٢ من أكتوبر ، يسلم بضرورة التفاوض السياسى مع جبهة التحرير ، على قاعدة الاستقلال ، وهى القاعدة التى ما انفكت الثورة تطالب بالتفاوض على أساسها منذ عام ١٩٥٤ ، كما أنه أبعد فى هذا الخطاب لغة التهديد وتقديم « شروط المنتصر » وأصبح يتحدث بلغة التعاون الحر . وتساءل أحمد بن بيللا عندما كان يستعرض سياسسة دييجول ازاء الجزائر منذ مجيئه للحكم :

ماذا كانت فائدة التسوية والمخادعات والمماظة منذ ثلاث سنوات كاملة . . . ثلاث سنوات دفعت الجزائر ثمنها دماء وضحايا وحربا ، ودفعتها فرنسا خسائر فى الارواح والعتاد والسمعة والنفوذ ، وتدهورا فى الحكم ، وانهيارا وانحلالا وتفسخا فى جميع الميادين . . . ثلاث سنوات من الاعمال الوحشية والحرب الشاملة لم تنجح فى ايقاف

سير الشعب الجزائري نحو الاستقلال ولم تكسب فرنسا من جراء ذلك مكسبا ولو هينا . لقد كان في استطاعة دييجول أن يحقق هذه الخطوة دفعة واحدة في سنة ١٩٥٨ أو بعدها بقليل . ولو فعل ذلك لكان في الامكان أن يطلق على خطوته انها « تاريخية » عملاقة . ولكن دييجول فضل أن يسير سيرا حلزونيا . . وسنرى كيف تدور عليه الدوائر !

* * *

في ٢٧ من اغسطس عام ١٩٦١ تشكلت وزارة جزائرية جديدة . فقد قرر المجلس الوطني للثورة الجزائرية بعد اجتماعه في ليبيا اعادة تشكيل الحكومة الجزائرية على الشكل التالي :

بن يوسف بن خده : رئيسا للوزارة ووزيرا للمالية .
كريم بلقاسم : نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية .
أحمد بن بيللا : نائب رئيس الوزراء .
محمد بوضياف : نائب رئيس الوزراء .
سعد دحلب : وزير الشؤون الخارجية
عبد الحفيظ بوصوف : وزير التسليح والمواصلات
حسين آية أحمد : وزير دولة
الاخضر بن طوبال : وزير الدولة
رابح بيطاط : وزير دولة
محمد خيضر : وزير دولة
محمد السعيدى : وزير دولة
محمد يزيد : وزير الاستعلامات

وبدأت الاتصالات السرية بين حكومة الثورة الجديدة برياسة بن يوسف بن خده والحكومة الفرنسية في أماكن متعددة من أوروبا .

وفي ٢٦ من أكتوبر نقل أحمد بن بيللا الى مكان مجهول ، بعد أن تلقت السلطات الفرنسية معلومات تفيد ان المجاهدين وضعوا خطة لحطفه . كانت فرنسا تنوى أن تنقل بن بيللا من ايكس الى فرنسا ، في منزل تحدد فيه اقامته ليكون قريبا من المفاوضات . ولكنها الآن تضاعف الحراسة عليه ، فهي تعرف مدى بطولة الفدائيين الجزائريين .

وتمضى عشرة أيام . . ساعات خلالها صحة بن بيللا ، وتدهورت . وطالب المعتقلون بضرورة الافراج عن عميدهم قائد جيش التحرير وزملائه الذين اختطفتهم فرنسا . ولم تستجب فرنسا لمطالبهم . فأعلنوا اضرابهم عن الطعام ابتداء من ٢ من نوفمبر عام ١٩٦١ احتجاجا على رفض السلطات الفرنسية الافراج عن الزعيم أحمد بن بيللا ، وكان هو على رأس المضربين عن الطعام .

وبدأت المظاهرات الوطنية تجتاح المغرب للمطالبة باطلاق سراح أحمد بن بيللا بل وتهاجم دار السفارة الفرنسية في الرباط . وطالب

ما أشعلت النيران في فجوات بالارض ثم القى فيها بالمسجونين جماعات ،
من النساء والفتيات والرجال والاطفال والمسنين .

النيران تشتعل في القرى ، بل وتهدم هذه القرى بأكملها على
المسلمين ، الذين لا ينشدون الا الحرية والسلام .

في تلمسان بلد احمد بن بيللا هدمت المدارس وقتل الجنود مدرسيها
واعدموا تلاميذها . واشعلت النيران في القرى . فخرج الاهالى ليجدوا
أنفسهم مساقين الى معتقلات التعذيب والاعدام . قرى بأكملها خلت من
أهلها وانعدمت فيها الحياة ، وران عليها الخراب والدمار وصصفت في
طرقاتها الرياح . وبين الحطام والركام والاطلال ترددت آمال الحرية
والاستقلال !

ولكن هذا كله يكلف فرنسا ثمنا غاليا ثمنا جعلها تنزل الى
دولة ليست من الدول الكبرى ولا تملك من امكانياتها شيئا الآن . حرب
الجزائر تكلفها اكثر من ألف مليار فرنك سنويا .

وشهدت الشهور الاولى من عام ١٩٦٢ اجتماعات هامة وحاسمة
في تاريخ الجزائر وفي تاريخ فرنسا المكابرة .

اجتمع دييجول برئيس مجلس الشيوخ الفرنسي ، كما اجتمع برئيس
الجمعية الوطنية الفرنسية للاستشارة حول احتمال دعوة البرلمان الى عقد
دورة استثنائية لدراسة مشروعات الاتفاق بين الحكومة الفرنسية وحكومة
الجزائر المؤقتة . ثم عقد دييجول بعد هذا اجتماعا بلجنة الدفاع الوطني
برياسته ، وحضر الاجتماع ميشيل دوبريه رئيس الوزراء ووزير القوات
المسلحة وبعض القادة العسكريين .

وفي اليوم التالي ، في ٢٤ من فبراير عام ١٩٦٢ وفي قاعة مجلس
الشيوخ في ليبيا ، وستار من السرية التامة ملف المكان والزمان ، عقد
المجلس الوطني للثورة الجزائرية اجتماعه لبحث مشروع الاتفاق مع
فرنسا . وكان اجتماعا هاما وحاسما مثل كل الاجتماعات .

وفي اليوم التالي أيضا كان دييجول يعقد الاجتماع الثاني مع قواد
الجيش والاسطول والطيران لوضع الخطة النهائية لمواجهة أى انقلاب
محتمل يقوم به المتطرفون اليمينيون ضد حكومته عند اعلان وقف اطلاق
النار .

وتعرب الدوائر القريبة الصلة بالجيش عن تفاؤلها برغم السرية
التامة التي تحيط باجتماعات القادة في طرابلس او باريس . ولكن جيش
التحرير الجزائري كله متحفز وحريص ويشن هجماته الفدائية في بطولة
رائعة . أعمال العنف تبلغ أشدها ويحدث هجوم كل عشرين دقيقة
وضحايا يتساقطون بالآلاف من أجل اليوم الموعود الذي بات قريبا .

أرسل الملك الحسن الثاني رسالة مع سفيره في فرنسا سلمها
للزعيم أحمد بن بيللا في المعتقل ، وقيل يومها ان بن بيللا ورفاقه قد
اشتركوا من الناحية الفعلية في اجتماع المجلس الوطني للثورة الجزائرية
المنعقد في طرابلس .

وفي مساء ٢٥ من فبراير عام ١٩٦٢ كانت لحظات حساسة على الطريق الذي يسير فيه كفاح الجزائر ونضالها نحو الاستقلال والحرية .

اعترفت فرنسا لأول مرة منذ أن احتلت الجزائر بحق أبناء الجزائر في الاستقلال بعد أن كانت تصر على أن الجزائر فرنسية وانها ولاية فرنسية . . . واعترفت فرنسا لأول مرة بأن أرض الجزائر وحدة لا تتجزأ ، بعد أن كانت تطمع دائما في الصحراء ، في الكنز الجزائري ، تريد أن تقتطعه لتستغل ثرواته . . . واعترفت لأول مرة كذلك بحق الزعيم الجزائري احمد بن بيللا في الاشتراك في المفاوضات وابداء رأيه في مستقبل وطنه . وهو الحق الذي كانت تنكره عليه منذ اختطفته قبل أكثر من خمس سنوات !!

كان اعتراف فرنسا بهذه المسائل الثلاث من الاسباب التي أدت الى نجاح المباحثات الاخيرة الخاصة بالجزائر ، والتي انتهت الى وضع مشروع اتفاق رسمي وافقت عليه الحكومة الفرنسية . وهذا هو اليوم الرابع لاجتماعات المجلس في طرابلس لبحث المشروع من جميع نواحيه . وكانت الاجتماعات تطول حتى تستمر الى وقت السحور ليتمكن الاعضاء الأربعة والخمسون من انجاز المناقشة والدراسة بسرعة .

وتنتظر الحكومة الفرنسية بين لحظة وأخرى وصول رسالة من الحكومة الجزائرية تتضمن قرار مجلس الثورة في شأن الاتفاق . فحالما تصل الموافقة من مجلس الثورة الى باريس سيعلم ديجول بنفسه نبأ وقف القتال في الجزائر . ألم يكن ديجول نفسه هو الذي طلب أن يتولى الاعلان عن ذلك عندها توافق الجزائر على مشروع الاتفاق الذي سيضع حدا للحرب الدامية هناك ؟

وهذا الاتفاق سبقته جهود مضيئة ومباحثات سرية بدأت في أواخر ديسمبر عام ١٩٦١ ، وجرت في أكثر من مكان ، في المغرب وفرنسا وسويسرا ، وكان آخرها تلك الاجتماعات التي اشترك فيها أربعة من الوزراء الجزائريين مع ثلاثة من الوزراء الفرنسيين ، وانتهت في منتصف فبراير عام ١٩٦٢ الى وضع مشروع الاتفاق .

وقد قام كريم بلقاسم نائب رئيس وزراء الجزائر ورئيس وفدها في المفاوضات وبصحبته الأخضر بن طوبال وزير الدولة ، ومحمد يزيد وزير الاستعلامات بزيارة لقصر « أونوا » الذي يقيم فيه بن بيللا وزملاؤه المعتقلون معه في فرنسا . وتمت الزيارة بضمان ديجول شخصيا خلال الايام الاولى من شهر فبراير ١٩٦٢ .

وفي اجتماع طويل عقد في « أونوا » في سرية كاملة وتحت حراسة مشددة بحث الوزراء الثلاثة مع اخوانهم بن بيللا وبوضياف وخيضر وحسين آية وبيطاط ، كل ما يتصل بالاتفاق مع فرنسا .

ووضع الزعماء الجزائريون الثمانية معا الخطوط الرئيسية لاتفاق وقف اطلاق النار حتى اذا ما قبلت فرنسا شروطه عرض على المجلس الوطني للثورة الجزائرية في اجتماع غير عادي يعقده في طرابلس لهذا الغرض .

وعلى هذا الاساس جرت المناقشة بين المفاوضين الفرنسيين والجزائريين ٠٠ وتناولت المباحثات خمس نقاط رئيسية هي :

أولا : وقف اطلاق النار :

وطلب الجانب الفرنسي ضرورة موافقة المجلس الوطني للثورة الجزائرية على قرار وقف القتال بالذات .

وطلب الجانب الجزائري ضرورة بدء فرنسا بسحب قواتها التي نقلتها الى الجزائر عقب قيام الثورة عام ١٩٥٤ .

ووافق كل من الجانبين على شروط الآخر ، وأعلنت فرنسا أنها ستبدأ فورا عمليات سحب الجنود الفرنسيين من الجزائر .

ثانيا : فترة الانتقال :

طلب الجانب الفرنسي أن يؤلف مجلس تنفيذي مشترك يدير شئون الجزائر لمدة أربع سنوات على الأقل ، ويتناوب رئاسته مسئولون جزائريون وفرنسيون على أن يتولى المجلس اجراء استفتاء تقرير المصير .

ورفض الجانب الجزائري هذا الطلب ، وقال اذا كان لابد من وجود مجلس تنفيذي يمهّد لعملية الاستفتاء ، فلا يجب أن تزيد مدته بأية حال على بضعة أشهر فقط ، ولتكن ستة ، كما يجب أن يكون رئيس المجلس جزائرياً من أعضاء جبهة التحرير .

وانتهت المناقشة حول هذه المسألة الى أن تكون مهمة المجلس موقوتة بستة أشهر فقط ، وأن يرأسه جزائري يتفق عليه الطرفان ، دون اشتراط لعضويته لجبهة التحرير .

وقد تم الاتفاق بالفعل على اختيار عبد الرحمن فارس رئيس المجلس الاداري السابق للجزائر وهو مجاهد وطني في الثالثة والاربعين من عمره ومعتقل منذ مدة في فرنسا .

ثالثا : القواعد العسكرية :

وصل المفاوضون الى النقطة الخاصة بالقواعد العسكرية التي تطلبها فرنسا والتي ترفضها الجزائر ، وقد كانت هذه النقطة بالذات من أعقد المشكلات التي واجهها المفاوضون وكادت المباحثات تقطع بسببها أكثر من مرة .

أصر الفرنسيون على ضرورة الاحتفاظ بقاعدة «المرسی الكبير» بمقتضى معاهدة عسكرية خاصة .

ورفض الجزائريون المبدأ على الاطلاق ، فاقترح الفرنسيون أن يستأجروا القاعدة لمدة عشرين سنة على الأقل قابلة للتجديد .

وقبل الجزائريون مبدأ التأجير ، ولكنهم رفضوا المدة وطلبوا ألا تزيد على عشر سنوات وعاد الفرنسيون فطالبوا بخمس عشرة سنة .

رابعاً : وضع المستوطنين :

طالب الجانب الفرنسى بأن يكون للمستوطنين فى الجزائر - ومعظمهم من الفرنسيين - حق الاحتفاظ بجنسياتهم الأصلية الى جانب تمتعهم بمزايا وحقوق الجنسية الجزائرية الجديدة ، أى التمتع بما للمواطنين الجزائريين من حقوق سياسية ومدنية .

ورفض الجانب الجزائرى تمييز المستوطنين بهذه الصورة ، واقترح أن يخير هؤلاء المستوطنون بين الاحتفاظ بجنسياتهم الأصلية ، وعندئذ يعاملون معاملة الاجانب أو اكتساب الجنسية الجزائرية الجديدة فيعاملون بذلك كمواطنين لهم ما للجزائريين الأصليين من حقوق وعليهم ما عليهم من واجبات .

ووافق الجانب الفرنسى على وجهة النظر الجزائرية من حيث المبدأ على أن يترك حق الاختيار بالنسبة للمستوطنين مفتوحاً لمدة أربع سنوات .

ورفض الجانب الجزائرى هذه المدة الطويلة ، وطلب ألا تزيد على سنتين ، ووافق الجانب الفرنسى .

خامساً : الصحراء الجزائرية :

جرت المناقشة حول مسألة الصحراء على أساس اعتراف فرنسا مقدماً بأن الصحراء جزء لا يتجزأ من أرض الجزائر أى أن سيادة الدولة الجزائرية الجديدة تمتد الى كل حفنة من تراب الجزائر، وأصبحت المفاوضات مقصورة على كيفية استغلال ثروات الصحراء من بترول وغاز طبيعى ومعادن وغير ذلك .

وطالب الجانب الفرنسى بأن يكون نصيبه هو والدول الاوربية الأخرى الثلثين - ويبقى الثلث للجزائر .

ورفض الجانب الجزائرى على أساس أنه لا يستطيع أن يحدد من الآن كيفية استغلال ثروات الصحراء فى المستقبل ، وان كان يعد بأن يتم ذلك داخل نطاق من التعاون الفنى والمالى مع فرنسا .

وطالت المناقشة فى الموضوع - وانتهت الى الاتفاق على أن يتم استغلال ثروات الصحراء مناصفة بين الجانبين .

فى هذه اللحظات التى كان يجتمع فيها الجانبان كان نشاط المنظمة المسلحة السرية الفرنسية فى ازدياد . وكثرت الاعمال الارهابية والجرائم الوحشية التى ترتكبها العصابات السرية ضد المدنيين الجزائريين الأبرياء .

واجتمع من جديد المجلس الوطنى للثورة الجزائرية فى طرابلس يوم ٢٦ من فبراير عام ١٩٦٢ لمناقشة مشروع الاتفاق ورأى المجلس ادخال بعض التعديلات عليه ، وتم اتصال سريع لابلاغ الحكومة الفرنسية بالقرار .

ورؤى لهذا تأجيل انتهاء دورة المجلس الى عدة أيام أخرى ، وبقى أعضاء المجلس الوطني للثورة الجزائرية في طرابلس حتى تلقوا رأى الحكومة الفرنسية في الاعتراضات التي أبدت على المشروع .

ووافقت الحكومة الفرنسية على المطالب الجديدة للجزائريين وأهمها :

أولا : تتعهد فرنسا بالبدء فى اخلاء سبيل المعتقلين الجزائريين فى فرنسا والجزائر بمجرد اعلان اتفاق وقف اطلاق النار . على أن يتم الافراج عن المعتقلين جميعا فى خلال أسبوعين على الأكثر ، ويبلغ عدد المعتقلين فى الجزائر نحو نصف مليون وطنى ، أما الذين فى فرنسا فعددهم نحو ستين ألف جزائرى .

ثانيا : تخفيض فترة الانتقال التى يتم فيها التمهيد لاجراء الاستفتاء الخاص بتقرير المصير فى الجزائر الى أقل وقت ممكن بحيث لا تزيد هذه الفترة على أربعة أشهر ، وكان المفاوضون الفرنسيون قد طلبوا جعل هذه الفترة أربع سنوات .

ووافقت فرنسا على خفضها الى أربعة شهور فقط .

وبدأت الاستعدادات تجرى لاعلان وقف اطلاق النار فى الجزائر . كان هذا يتطلب جهودا جبارة من جانب المسئولين الفرنسيين والجزائريين على حد سواء .

وقرر أعضاء مجلس الثورة الجزائرى فى اجتماعهم التاسع الا يعلن شىء عن الاتفاق الخاص بوقف اطلاق النار الا بعد أن تنتهى اجتماعاتهم فى طرابلس ويغادروها فعلا . وبعد وصول العسكريين الى داخل الجزائر حيث ترابط قوات جيش التحرير فى مواقعها هناك .

وحشد ديجول ثلاثين ألف جندى حول مدينة الجزائر وحدها لمواجهة أى انقلاب تقوم به المنظمة السرية لعرقلة الاتفاق .

وقد تمكنت السلطات الفرنسية من اعتقال اثنين من زعماء المنظمة السرية فى منطقة باريس .

وكانت لحظة تاريخية حاسمة عندما أعلن مجلس الثورة الجزائرية بيانه .

« عقد المجلس الوطنى للثورة الجزائرية اجتماعا فوق العادة بطرابلس الغرب من ٢٢ من فبراير الى ٢٧ من فبراير وبعد مناقشات حول المفاوضات مع الحكومة الفرنسية فوض المجلس الوطنى لثورة الجزائر الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية مهمة مواصلة المفاوضات الجارية » .

هكذا بعد الاجتماع العاشر فوضت الحكومة فى اتخاذ الاجراءات الرسمية لتوقيع الاتفاق ، واعلان وقف اطلاق النار ، وانهاء الحرب التى استمرت ٨٨ شهرا بين جيش التحرير والقوات الفرنسية ورحبت الدوائر

الفرنسية بقرار مجلس الثورة الجزائرى « وبعدها بلحظات كان يتحدث باسم الحكومة الفرنسية يعلن أن ممثلى الحكومة الفرنسية والجزائريه سيعقدون اجتماعا علنيا بعد بضعة أيام فى باريس » .

وعندما وصلت الى الجزائر - أرض المعركة - أنباء ما حدث فى مجلس الثورة ، والبيان الذى أذيع ، كان رجال منظمة الجيش السرى قد تهاهبوا لعملية انتقامية جديدة من عملياتهم الارهابية الوحشية ضد الوطنيين .

وأصدر الجنرال « راول سالان » رئيس المنظمة المسلحة السرية وثيقة خطيرة تتضمن خطة العمل للمنظمة الارهابية الفاشية لتدبير المذابح فى الجزائر واشاعة الفوضى والحرب الأهلية فى فرنسا ذاتها . وقد كشفت الوثيقة رقم « ١٩ » هذه الصعوبات التى تواجهها المنظمة الارهابية فى هذه اللحظة الحاسمة .

وكان على الحكومة الفرنسية التى تمر بلحظاتها التاريخية الهامة أن تتخذ قرارها .

وقررت الحكومة الفرنسية وضع برنامج سياسى على النحو التالى :

١ - دعوة البرلمان الفرنسى فى المدة بين ٨ الى ١٣ من مارس عام ١٩٦٢ للاستماع لحطاب من رئيس الجمهورية أو تصريح من الحكومة الفرنسية .

٢ - اجراء استفتاء يوم ٨ من ابريل للمصادقة على الاتفاقية الخاصة بالجزائر .

٣ - اجراء انتخابات يوم ٩ من ابريل عام ١٩٦٢ .

واجتمعت حكومة الجزائر الوطنية فى تونس برياسة يوسف بن خدة لبحث التعليمات التى ستزود بها وفدها فى اجتماعات وفدى المفاوضات الفرنسية الجزائرية ، ولبحث نقطتين هما :

١ - السيادة على الجزائر خلال فترة الانتقال التى حددت بأربعة أشهر : وفرنسا تصر على أن تكون لها السيادة بمقتضى الامر الواقع ، فى حين أن الحكومة الجزائرية ترى فى ذلك ما يخل بضمان حرية الاستفتاء . وبهذا يجب ايجاد طريقة تكفل ضمان هذه الحرية .

٢ - وضع حكومة الجزائر المؤقتة : ويطالب الفرنسيون بحلها بحجة أن الموقف بعد الاتفاق على وقف اطلاق النار لم يعد يستدعى قيامها ، وبخاصة عندما يؤلف المجلس التنفيذى لفترة الانتقال .

وبدأت الاستعدادات تجرى لاجراء المرحلة الأخيرة فى المفاوضات .

واختيرت مدينة « ايفيان » الفرنسية على الحدود السويسرية وأحيطت هذه الاستعدادات بسرية كاملة كيلا تفسد الخطة .

اللمحظات القادمة تحمل الكثير : فالمحادثات الفرنسية الجزائرية تناولت خمس مسائل مازال معلقة بين الجانبين :

أولا : المدة التي ستستغرقها فترة الانتقال بين اعلان وقف اطلاق النار واجراء الاستفتاء حول تقرير المصير ، حيث أن الجانب الجزائري يريد تخفيض هذه المدة الى أقصى حد ممكن .

ثانيا : تأليف الجهاز التنفيذي المشترك الذي سيتولى الادارة في الجزائر خلال فترة الانتقال ، ولم يتم الوصول بعد الى اتفاق بشأن الجهاز التنفيذي الذي سيكون جزائريا في الأغلب ، وكذلك بشأن عدد اعضائه: هل يكونون تسعة أعضاء أو اثني عشر عضوا ؟

ثالثا : القوة المحلية التي ستكون أداة الجهاز التنفيذي لصيانة النظام خلال فترة الانتقال وقوامها ٣٥ ألف جندي . ففرنسا تريد أن تتألف هذه القوة من الجزائريين الذين يعملون بالجيش الفرنسي على أن يقودهم ضباط فرنسيون على حين أن الجزائر تريد أن تشمل القوة وحدات من جيش التحرير الجزائري .

رابعا : موعد الانسحاب التدريجي للجيش الفرنسي . والمعروف أن القوات الفرنسية ستبقى في الجزائر من حيث المبدأ ثلاث سنوات ، ولكن الجزائريين يريدون تخفيض عددها وتركيزها في بعض القواعد .

خامسا : اطلاق سراح المعتقلين الجزائريين في فرنسا والجزائر . ففرنسا تريد الافراج عنهم تدريجيا والبدء بالذين صدرت ضدهم أحكام خفيفة على حين يريد الجزائريون اصدار عفو شامل مرة واحدة .

وفي ٧ من مارس بدأت المرحلة النهائية في مفاوضات السلام . جرت المفاوضات في فندق « دي بارك » في « ايفيان » وهو المكان الذي جرت فيه قبل عشرة أشهر المرحلة الأولى من المفاوضات التي لم يكتب لها النجاح في ذلك الوقت . ثم استؤنفت في « لوجران » بلا نتيجة . وعاد الطرفان الى محاولة ثالثة . واستطاعا أن يصلا الى اتفاق ، عرض مشروعه على الحكومة الفرنسية فأقرته ، وعلى المجلس الوطني للثورة ، فأقر معظم ما جاء فيه . ولقد طار الوفد الجزائري الى سويسرا يوم ٦ من مارس عام ١٩٦٢ وفي اليوم التالي كانت ثلاث طائرات هليكوبتر تابعة للجيش السويسري تنقل أعضاء الوفد من مقره السري عبر بحيرة جنيف الى الحدود الفرنسية . وفي ميسا البحيرة كانت فرق الانقاذ والضفادع البشرية تتابع الطائرات المحلقة فوقها استعدادا لأي طارئ ، وعلى الارض كانت المدافع المضادة للطائرات قد حشدت على استعداد للعمل وقوهتها متجهة الى السماء .

وفي مدينة الاستشفاء الصغيرة - ايفيسان - أحضرت السلطات الفرنسية ألفين وخمسمائة جندي لحراسة وفدى المفاوضات . كما أحضرت عددا من السيارات المصفحة والمدافع المضادة للطائرات . وفرضت رقابة شديدة على منافذ المدينة حتى لا يمر ارهابي واحد من رجال المنظمة المسلحة السرية فيفسد جو المفاوضات أو يعتدى على أحد .

والجو الذي يسود هذه المفاوضات جو غريب، يتنازع فيه المتفاوضين، تفاؤل من ناحية وتحفظ من ناحية أخرى .

وكانت الدوائر الفرنسية تذيع على العالم أنها متفائلة بنجاح المفاوضات حتى أن « جاك شابان دلماس » رئيس الجمعية الوطنية الفرنسية أبلغ اللجنة التوجيهية فيها أن البرلمان الفرنسي سوف يدعى للاجتماع بمجرد توقيع اتفاق « وقف اطلاق النار في الجزائر » .

وكان الوفد الجزائري لا يريد أن ينساق في التفؤل كما يفعل الفرنسيون وانما رؤى التريث والتحفظ حتى تنجلي الامور . ويومها صرح وزير التسليح الجزائري « عبد الحفيظ بوصوف » أن هناك مشكلات كبيرة لا تزال تنتظر الحل ، وهي مشكلات لم يبت فيها الوفد الفرنسي في أثناء المباحثات السرية السابقة . وستكون هذه المشكلات موضوع مناقشة في محادثات ايفيان الحالية .

وأنه من الواضح أن المحافظة على السلام في الجزائر خلال فترة الانتقال هي مطلب من المطالب الكبرى بالنسبة للحكومة الجزائرية ، ولهذا يجب على فرنسا أن تقوم بالقضاء على الفاشيين الارهابيين من رجال المنظمة السرية .

وصرح « عبد الحفيظ بوصوف » وزير التسليح الجزائري بأن الاتفاقيات بين الجانبين الجزائري والفرنسي تقبل مبدأ جلاء القوات الفرنسية عن الجزائر وتحديد موعد حلها .

وأضاف البيان أن الاتفاق يقضى بأن وقف اطلاق النار سيتم تطبيقه في أقسام الجزائر الخمسة عشر ويشمل ذلك قسمي الصحراء وسيجري الاستفتاء في الاقسام الخمسة عشر في وقت واحد .

وأضاف البيان أن الجزائر ستكون لها جميع مميزات الدولة التي تتمتع بالاستقلال الكامل والسيادة ووحدة التراب الجزائري .

وأنه سيكون هناك جيش وطني جزائري قوامه جيش التحرير الوطني الجزائري ، وستكون الدولة ذات سيادة مستقلة في الداخل والخارج ، تنتهج المبادئ والاهداف التي تتمشى مع مستقبل جمهورية الجزائر .

وان الدولة الجزائرية ستتولى جميع السلطات الادارية والاقتصادية التي تمارسها المؤسسة العامة للمناطق الصحراوية الجزائرية بعد أن تحل هذه الهيئة .

كما ستتكون هيئة تقديمية نصف أعضائها من الجزائريين والنصف الآخر من الفرنسيين لتشرف على المسائل الفنية الخاصة باستغلال البترول على أن تحصل الجزائر على نصف عائدات البترول والنصف الآخر تحصل عليه فرنسا .

وتضمن البيان أيضا أن التعاون بين فرنسا والجزائر في المستقبل يبقى ساري المفعول لمدة ثلاث سنوات . وستظل الجزائر في منطقة الفرنك بعد ادخال تعديل عليها ، وبعد أن تحصل على ضمانات اقتصادية ، وعلى أن تكون لها حرية اختيار النظام الاقتصادي .

أما بالنسبة للأوربيين في الجزائر ، فقال البيان ان الفرنسيين في

الجزائر سيكون باستطاعتهم اختيار الجنسية الجزائرية اذا رغبوا في ذلك .
أما الذين لا يختارون الجنسية الجزائرية أو الفرنسية صراحة فسيكون في
استطاعتهم التمتع بالحقوق المدنية الجزائرية لمدة ثلاث سنوات كفترة
اختبار ، ولكن ممارسة هذه الحقوق المدنية ستوقف تمتعهم بالحقوق
المدنية الفرنسية ، ولا يعنى هذا بالضرورة ممارسة ممارستهم لجميع حقوق
المواطنين الجزائريين .

وتقضى هذه الاتفاقية باقامة هيئتين جديدتين هما محكمة للضمانات
وهيئة لضمان تنفيذ الاتفاقيات .

وتم الاتفاق على وقف اطلاق النار بين قوات الاستعمار الفرنسى
وقوات جبهة التحرير الجزائرية يوم ١٩ من مارس عام ١٩٦٢ وعلى أن
يطلق سراح أحمد بن بيللا وزملائه بعد ساعات قلائل من تنفيذ وقف
القتال .

وكان أحمد بن بيللا متنبها جيدا لما يدور في الجزائر . كان يعرف
أن بلاده مقدمة على الاستقلال ، والنشاط الاقتصادى في البلاد يضعف
لدرجة الانهيار في مختلف المجالات الزراعية والصناعية والتجارة الخارجية
والداخلية الى جانب تهريب رءوس الأموال من الجزائر . وان نشاط
الفرنسيين وأعضاء المنظمة السرية الارهابية بلغ حدا مقلقا ، وكان الهدف
من وراء ذلك القضاء على الاقتصاد الجزائرى وخاصة ، أن معظم الامكانيات
الاقتصادية في الجزائر كانت ترتبط برأس المال الفرنسى .

نعم جاء الاستقلال في وقت عصيب ، كانت حوالى ٦٠ فى المائة
من المناجم والمصانع مغلقة بالإضافة الى توقف ٧٥ فى المائة من الأعمال
والمشروعات الكبرى فى البلاد . وقد ألحقت الأزمات السياسية التي
تعرضت لها الجزائر أخيرا أضرارا بالغة بالاقتصاد الوطنى .

فرنسا تنتظر اللحظة التي يكف المجاهدون الأبطال فيها عن اطلاق
الرصاص بفارغ الصبر .

والمجاهدون والشعب الجزائرى بأسره ينتظرون لحظة وقف القتال
تمهيدا للسلام لكي يرفرف على ربوع الجزائر التي ستنال استقلالها
عما قريب . والشعب كله ، والعالم أجمع ينتظرون هذه اللحظة التي
سيبدأ بعدها اطلاق سراح بن بيللا وزملائه .

وجاءت اللحظة الحاسمة يوم ١٩ من مارس عام ١٩٦٢ وأعلن وقف
القتال المسلح رسميا بين الجانبين الجزائرى والفرنسى .

وعلى الفور بدأ تنفيذ نصوص اتفاقية ايفيان .. وبدأت الاستعدادات
لتهيئة الجو لافراج عن الزعماء أحمد بن بيللا وزملائه .

وكان الافراج عن أحمد بن بيللا وزملائه حدثا كبيرا اهتمت به وكالات
الانباء والصحافة والاذاعة والتليفزيون في جميع أنحاء العالم ، ومئات
الصحفيين العالميين كان لا يشغل بالهم الا البحث وراء التفاصيل التي
أحيطت بالسرية التامة .

كان بن بيللا ورفاقه يعرفون موعد الافراج عنهم : كانوا يعرفون أنه بعد موعد وقف اطلاق النار بساعتين .

فى هذه اللحظات الفاصلة - والتي كانوا يقضونها فى قصر « بوردوه » - اتخذت الاجراءات السرية للافراج عن أحمد بن بيللا وزملائه : فحقائبهم، ومهماتهم كلها تم ارسالها الى الرباط .

وفى ساعة الصفر - ساعة الرحيل من المعتقل الذى أمضى فيه الزعماء الجزائريون خمس سنوات كاملة منذ اختطافهم - دخلت الى القصر سيارة سوداء : أنها سيارة الحرس العادية التى تدخل القصر وتخرج كل يوم فى هذا الموعد نفسه . ولذلك لم يعرفها مئات الصحفيين العالميين الذين جاءوا ليعرفوا الحقيقة ، وليروا أحمد بن بيللا لحظة خروجه الى الحياة ، الى الحرية ... جاءوا ليروا مشاعر هذا البطل فى اللحظة الاولى التى يضع قدمه فيها خارج باب المعتقل .

وظل الصحفيون أمام القصر ، يتناوبون السهر لتسجيل لحظة خروج بن بيللا .

وظل الصحفيون لا يرون الا تلك السيارة السوداء التى تدخل القصر وتخرج منه كل يوم فى مواعيد محدودة ، وهكذا ترك رجال الصحافة ووكالات الانباء والاذاعة والتليفزيون هذه العربة السوداء تدخل، وتخرج دون أن يعيروها أدنى التفاتة .

وفى هذه الأثناء حلقت طائرة هيلوكوبتر فوق القصر . ثم نزلت فى مكان قريب منه وكانت هذه الطائرة مرسلّة للتعمية والتمويه فقط: كانت هذه الطائرة - فى الواقع - فعلا وقع فيه جميع الصحفيين العالميين الذين كانوا ينتظرون خروج أحمد بن بيللا .

وأسرع الصحفيون الى الطائرة الهيلوكوبتر وحاول البوليس أن يبعدهم ... ولكنهم أصروا على الوقوف حول الطائرة وآلات التصوير فى أيديهم مستعدة لتسجيل اللحظة الاولى لخروج أحمد بن بيللا .

وفى الدقيقة التى تجمع فيها الصحفيون حول الطائرة كانت سيارة الحرس تخرج من باب القصر وبدخلها أحمد بن بيللا وزملاؤه الاربعة، فى طريقهم الى المطار ... الى الحرية ... الى النور ... الى الجزائر المستقلة ... الى لقاء الشعب الجزائرى الحبيب ! ..

فى هدوء غريب خرجت السيارة . ومرت بجانب مئات الصحفيين الذين نظروا اليها بازدراء !

السيارة السوداء نفسها .. الميعاد نفسه .. الروتين نفسه كل يوم .. منذ أن وقعت اتفاقية ايفيان ، وهم ينتظرون لحظة خروج أحمد بن بيللا .

ولم يكن حول السيارة السوداء ، التى تقل الزعماء الخمسة الذين يتحدث عنهم العالم ، بوليس لحراستهم . كانت العربة السوداء تسير

وحدها - هكذا - في هدوء غريب . وكأنها عربة عادية لا تحمل أهم خبر يشغل بال العالم اجمع في داخلها ! وفي الطريق الى المطار انطلقت السيارة ، ورائها آلاف الوجوه التي كانت تتحدث عن بن بيللا وزملائه، الذين ضربوا أروع مثل في التضحية ، والبطولة، وانطلقت السيارة . ولم يخطر على بال أحد من الذين يهمهم الامر أن الزعماء الخمسة في هذه السيارة السوداء . . وأنهم هم الذين كانوا - منذ لحظات - في قصر تحت حراسة مئات من الجنود المسلحين، هكذا أصبحوا الآن في سيارة تعبر بهم باريس لا يحرسهم سوى ضابط واحد بمدفع رشاش فقط .

ووصلت السيارة الى « مطار أورلي » بباريس . ووقفت السيارة عند مدخل المطار . وطلب الضابط الحارس من بوليس المطار السماح بدخول السيارة الى أرض المطار ، لأن بها ضيوفا كبارا . . ولم يعرف أحد من بوليس المطار من هم هؤلاء الضيوف الكبار وظنوه مجرد زوار أجانب لا أكثر ولا أقل . ولم يخطر على بال أحد من جنود الحراسة أن بن بيللا ورفاقه هنا في هذه السيارة .

وفي هدوء عجيب دخلت السيارة . وهناك على أرض المطار كانت تقف طائرة خاصة من طراز « كارافيل » على أتم استعداد للتخليق في الجو . . وكان الظلام يحيط بالطائرة ، حتى ينخدع الناس الذين يبحثون عن الحقيقة ، عن لحظة الافراج عن بن بيللا وصحبه .

وفي الظلام نزل الزعماء الخمسة من السيارة ، واتجهوا الى الطائرة وصعدوا في هدوء على سلمها . وجلس كل منهم في مكانه ، وأقفل باب الطائرة .

وانطلقت صاعدة الى السماء ، بعيدا عن أرض المطار - أرض فرنسا - متجهة بهم الى أرض الحرية والسلام .

وصلت الطائرة الى جنيف ولم يكن أحد يعلم شيئا عن وصولها الا شخص واحد فقط ، هو رئيس البوليس السويسري . كان هو الذي يقف في انتظار الطائرة وكان يقف معه حارس واحد ولكنه لا يعلم شيئا

كان المطار يمتلئ بمئات الصحفيين العالميين الذين جاءوا الى جنيف لتغطية انباء المؤتمرات العالمية المنعقدة فيها . ولكن لم يتنبه أحد منهم الى حقيقة ما يحدث حوله . لانه في الواقع لا يتصور أن الزعماء الخمسة يصلون الى المطار وليس في استقبالهم أي شخص في الوقت الذي يتحدث فيه العالم عن الزعماء الخمسة الجزائريين .

وهبطت الطائرة - هناك - في الظلام . في مكان بعيد عن مواقف الطائرات المعتادة .

وفي خطوات ثابتة ، هبط الزعماء الخمسة من الطائرة ، واتجهوا الى مكان حيث كانت تقف سيارتان كانتا معدتين لهما ، وبمجرد أن صعد الصحاب الخمسة الى السيارتين ، انطلقتا بعيدا عن المطار وشقت السيارتان شوارع جنيف المزدحمة بالجماهير المحبة للسلام ، ولكن لا أحد يشعر بمرور السيارتين .

وبعد وقت غير طويل وصلت السيارتان الى مقر الوفد الجزائري،
وصاح الحارس بالباب : « قف من أنت ؟ » ووقفت السيارتان وتقدم
رئيس البوليس السرى من الجنبدى الحارس وعرفه بشخصيته ،
وقال له :

— معى الآن بن بيللا وصحبه المعتقلين فى فرنسا ، وسمحوا لهم
بالدخول ..

وعلى الفور سمح الحارس بدخول السيارتين الى داخل مكان
الحرس . ولكنه رفض أن يسمح لركابهما بالنزول الا اذا استأذن الزعماء
الجزائريين بالداخل . فالأوامر تقضى باستئذان وفد المفاوضات الجزائرى
أولا قبل دخول أى شخص حتى ولو كان معهم مدير البوليس السرى .

كان رجال الجيش السويسرى هم الذين يحرسون قصر الوفد
الجزائرى فى « سينتياى دى برجس » ، واستمرت الاتصالات حوالى
عشرين دقيقة حتى أمكن الاتصال بكريم بلقاسم . وصاح كريم بلقاسم
للحارس .

— من تقول ؟ بن بيللا وزملاؤه ؟ دعهم يدخلون فوراً ! دعهم يدخلون !
وخرج الوزراء المتفاوضون — وكانوا بملابس النوم — يجرّون الى مدخل
الفندق الذى يعيشون فيه . وتلاقى الابطال ، بعد فراق طويل .

كان اللقاء رهيباً .. مهيباً .. عناق طويل .. لقاء بالاحضان ..
دموع تملأ الوجه وفرحة تفيض بالقلب .. وتهز الوجدان ..

بن بيللا يعانق بلقاسم والدموع تفيض بها عيناه ، بلقاسم
يحتضن — بقوة — بن بيللا ويضمه الى صدره كأنما يريد أن يتيقن أنه —
فعلاً — يحتضن بن بيللا — وأن هذه حقيقة وليست حلماً — والزعماء
الجزائريون يتبادلون التهئة ، انه اللقاء الرهيب المهيب بعد طول فراق،
الكلمات وقفت ، واللسان يرفض أن ينطلق .. ولكنها القلوب تتكلم ..

وفى الوقت الذى تم فيه اللقاء ، كانت باريس تعلن نبأ الافراج عن
أحمد بن بيللا وزملائه وأنهم — الآن — فى طريقهم الى سويسرا ، وأعلن
رسمياً فى الرباط أن بن بيللا وصحبه قد نزلوا فى ضيافة السفير المغربى
فى برن .

واسرع الصحفيون يحاصرون منزل السفير المغربى ، ويستعينون
بعدهم المكبرة التى ينظرون من خلالها الى كل زاوية يمكن أن تؤدى الى
التقاط صورة للزعيم أحمد بن بيللا وصحبه الاربعة . وسفير المغرب
يحاول اقناعهم — دون جدوى — بأن بن بيللا لا يوجد فى منزله ، ولكنهم
لا يصدقون . ويحاول أن يقنعهم أيضاً وهم مصرون على عدم التصديق :
انهم يؤكدون أن بن بيللا هنا فى منزله !

وفى الرباط رابط اكثر من مائتى صحفى عالمى يحاولون العثور
على بن بيللا — رجل الساعة — انهم مرابطون لتسجيل لحظة وصول
الزعيم — المجاهد — الشائر الاول — الى أرض المغرب .

وكالات الأنباء ، والإذاعة ، والتلفزيون العالمية أرسلت مندوبيها ليعرفوا لحظة وصول أحمد بن بيللا وتسجيلها . وهكذا عاش الصحفيون في الرباط على أعصابهم ، كما عاش اخوانهم في باريس وجنيف .

ومن المصادفات الغريبة ، أن سمع الصحفيون أصوات زغاريد ورأوا موكب عروس في تمام الساعة الثالثة صباحا متجها الى فندق « بالياكله » ، ويهجم عليه الصحفيون ومصورو السينما والتلفزيون وهم يجرون بملابس نومهم في الشارع ظنا منهم أن أحمد بن بيللا واخوانه قد وصلوا . ولكنهم اكتشفوا أنه موكب فرح .

ومرت أيام تلو أيام ، ولم يصل أحمد بن بيللا وهم يعيشون في قلق ، وعلى أعصابهم المشدودة لثرب اللحظة الخالدة .

وذات يوم ، في الساعة الرابعة صباحا فوجيء الجميع بوصول بن بيللا ، وتقرر أن يدخل هو ورفاقه في موكب رسمي ، وان يستقبله « الملك الحسن » عند مشارف الرباط . وأقيمت خيمة كبيرة ، في مدخل المدينة ، ووضع أمامها « التمر واللبن » فان أحمد بن بيللا ورفاقه سيشرّبون اللبن ويأكلون التمر وهذا هو عنوان الصداقة والترحيب في المغرب .

وامتلأت الشوارع في الرباط بمئات الألوف من الجماهير من مدخل المدينة حتى ساحة قصر السلام الذي سينزل فيه الضيوف الكرام الزعماء الخمسة . كانت المسافة تزيد عن الخمسين مترا ، لم يكن فيها موضع لقدم - زغاريد - وهتافات - وشعور بالفرح الذي يهز الوجدان . فرحة باللقاء مع الأبطال الذين تمثلت فيهم ثورة شعب الجزائر الذي انتزع الاستقلال لوطنه من مخالب الاستعمار الذي سامه صنوف العذاب وشتى ألوان القسوة والاضطهاد .

وصافح الملك الحسن بن بيللا ورفاقه وتعانقوا طويلا . ثم كان اللقاء المؤثر مع أعضاء جيش التحرير . لقاء بعد طول كفاح ، بالاحضان والدموع . انه لقاء القلوب ، الذي يعقد اللسان عن الكلام . . لقاء القائد رفيق السلاح . .

وهكذا عاد الأبطال بعد أن حكم عليهم بالموت وتعرضوا مرات عدة للاغتيال ، عاد الأبطال مع عودة السلام الى الجزائر المستقلة .

انه الحق ، انه الايمان الذي لا يمكن أن تقهره المزاعم والباطيل !

وفي يوم ٢٢ من مارس عام ١٩٦٢ ، عقدت حكومة الجزائر الوطنية في قصر دار السلام الملكي بالرباط أول اجتماع لها بكامل هيئتها منذ أن تم تأليفها لأول مرة قبل ثلاث سنوات ونصف سنة . وحضر أحمد بن بيللا هذا الاجتماع مع أحد عشر عضوا آخرين من بينهم الزملاء الأربعة الذين اعتقلوا معه عام ١٩٥٦ . وقد حضر الملك الحسن وأربعة من وزرائه جانبا من الاجتماع لبحث شئون الشمال الافريقي .

في ١٦ من أبريل عام ١٩٦٢ تم الافراج رسميا عن المجاهدين : جميلة بو حيرد ، وجميلة بوباشا .

وقبل الافراج عن جميلة بو حيرد كانت المجاهدة تعالج في المستشفى
ثم نقلت الى أحد المنازل ، الذي حددت فيه اقامتها حتى وقت اطلاق
سراحها .

وكانت قد حكمت عليها احدى المحاكم العسكرية الفرنسية «بالاعدام»
وتحدد يوم ٧ من مارس عام ١٩٥٨ لتنفيذ الحكم .

واهتز العالم الحر لهذا الحكم الظالم ضد المجاهدة الوطنية . وفي
٥ من مارس ١٩٥٨ اجتمعت لجنة حقوق الانسان بالامم المتحدة . وناقشت
مأساة جميلة بو حيرد بعد أن تلقت ملايين البرقيات باستنكار الحكم .
واضطرت فرنسا صاغرة للتراجع عن موقفها : خففت الحكم من
الاعدام الى السجن المؤبد .

وهكذا ظلت البطلة جميلة بو حيرد - رمز المرأة الجزائرية المناضلة
في سجون فرنسا منذ عام ١٩٥٧ حتى ١٦ من ابريل عام ١٩٦٢ - تقاسى
التعذيب وتتعرض للموت البطيء . ان جميلة بو حيرد - وجميلة بوباشا -
وجميلة بوعزة - والمجاهدة فاطمة - كلهن رمز لمدى اشتراك المرأة الجزائرية
في الثورة ، وكفاحها من أجل الاستقلال .

وفي الوقت نفسه تم الافراج عن جميع المسجونين والمعتقلين
الجزائريين في فرنسا والجزائر وبدأ العمل لترحيلهم واعادتهم الى أرض
الوطن ، على دفعات .

وهكذا شهدت الجزائر - بعد الايام الاولى من وقف اطلاق النار -
حركة مد وجزر شديدة . أهل البلد ، المواطنون الجزائريون يتدفقون
على الجزائر في يوم نصرها . والمستوطنون الاوربيون يسارعون بمفادرة
الجزائر - في يوم نصرها - الى فرنسا ، وشتى بقاع العالم الغربى .

مواطنون يقدون الى الجزائر ومستوطنون يغادرون الجزائر في يوم
نصرها .

حق يسلم الى أصحابه طالما انتزع منهم . . وحق يولد من جديد ،
وباطل يزهدق ، طالما تمسكوا به واهمين .

انه الحق ، انه اليقين الذى لا تقهره المزاعم الجوفاء . في الوقت
الذى يفد فيه الجزائريون الى وطنهم ، يغادر الفرنسيون الجزائر الى
فرنسا .

اذا حضر أهل البلد ذهب مغتصبوها !

وهكذا حقق الشعب الجزائرى ارادته في الحرية والاستقلال، على
حين خسر المستوطنون أمانهم الواهمة ، الباطلة . في البقاء والاستيطان

وضرب الشعب الجزائرى أروع آيات البطولة والفداء . وسجل
صفحات ناصعة في الكفاح ، والاستشهاد بينما ضرب المستعمر الفرنسى
أروع آيات الوقاحة ، والندالة وسجل صفحات سوداء في الفدر والحيانة
والاجرام . .

استقلال الجزائر ، الطريق للمستقيم الذى آمن به الشعب الجزائرى،
والطريق الذى لم يسلكه الفرنسيون . .

تحقق استقلال الجزائر : انه الشمس التى حاولت فرنسا اطفائها .
الشعب الجزائرى الذى آمن بمبادئه : وهبت له الحياة على ارض
الجزائر المستقلة !

هكذا انتهت الاسطورة القائلة بأن الجزائر فرنسية وقطعة منها
عبر البحر المتوسط .

انتهت هذه المزاعم الباطلة . . انتهت الى الابد : انها جمهورية
الجزائر المستقلة الحرة ، قامت وسوف تظل قائمة الى الابد !

بؤادر مقلقة

فى شهر أبريل ١٩٦٢ حضر أحمد بن بيللا لزيارة الـجـمـهـوريـة العربية المتحدة . جاء مع زملاء النضال محمد خيضر وحسين آية أحمد و رابح بيطاط ، الى القاهرة معقل الاحرار والثوار . واستقبل الشعب العربى فى القاهرة الزعيم أحمد بن بيللا وزملاءه استقبالا وطنيا رائعا ، عبرت فيه الجماهير عن فرحها وسعادتها بلقائها مع ابن شمالى افريقية الغالى الذى كان يعيش معها من قبل حتى عام ١٩٥٦ حينما اختطفته فرنسا .

وزار أحمد بن بيللا الاماكن التى يتوق لزيارتها والتى يعرفها من قبل ، ولا ينسى تلك اللحظات السعيدة التى عاشها عندما استدارت سيارته تشق طريقها فى شارع ٢٦ يوليو بالقاهرة وسط الجموع الحاشدة، تمنى لو نزل ساعتها وصعد الى حجرته التى ترك بها كثيرا من ذكرياته الغالية . رفع البطل أحمد بن بيللا رأسه الى شرفة بالدور السادس فى هذه العمارة التى كانت تطل منها ، ومن الشرفة نفسها سيدة تفيض عيناها بالدموع وقلبها لا يكاد يستقر بين جنبيهما من نشوة الفرح والسعادة والانتصار .

انها السيدة بدور مصطفى التى استضافته منذ مارس عام ١٩٥٢ الى وقت اختطافه ، والتى ظلت تبكى عليه بعد أن أودع السجن حتى فقدت بصر احدى عينيها. قصة وفاء واخلاص، وقصة بطولة وانتصار، و ارادة وطريق كفاح طويل يصل الى استقلال الجزائر . . الأمنية التى عاش عليها أحمد بن بيللا يتغذى جسده وروحه منها ، وشاركته هذه السيدة أحاسيسه وشعوره ، ودعواتها معه فى كل مكان !

وزار البطل أحمد بن بيللا وزملاؤه بورسعيد ، والتقوا باخوانهم المجاهدين الذين يعيشون فى القاهرة ، وعندما زار مقر الحكومة المؤقتة فى جاردن سیتی بالقاهرةلقى كلمة قصيرة قال فيها: « انالكلامقصير والعمل جسيم فعلىنا جميعا أن نعمل » !

نعم . . بعد انتصار الثورة الجزائرية لابد من العمل . فالثورة كانت انتصارا لكل المثل والمبادئ الشريفة التى يدافع عنها الانسان فى كل مكان . ان الشعب الجزائرى الآن سينطلق بكل طاقاته الخلاقة لبناء بلده على أسس قومية عربية متينة .

وقد أذاعت الحكومة الجزائرية بيانا سياسيا يوم ١٣ من يونيو عام ١٩٦٢ دعت فيه جميع أفراد الشعب الجزائرى والمستوطنين الفرنسيين للاشتراك فى استفتاء تقرير المصير يوم أول يوليو وللإجابة على سؤال

للاستفتاء بكلمة « نعم » ، ودعا البيان المستوطنين للمساهمة في بناء صرح الجزائر الجديدة ، وقال : ان حكومة الجزائر تؤكد ان اتفاقيات ايفيان ستكون أساسا للدولة الجزائرية الجديدة . وأن شعب الجزائر سيحترم بدقة الضمانات التي نصت الاتفاقيات على توفيرها للمستوطنين . وعلى هؤلاء ألا يستمعوا الى أقوال المنظمة السرية التي تحاول تخريب الجزائر ودفعها الى الدمار وتسوقهم الى كارثة .

وقال البيان أنه عندما تصبح الجزائر دولة مستقلة في أول يوليو سيأخذ الزعماء الشبان في أيديهم مصير البلاد وسوف تدعم القوى الشعبية المكاسب التي أسفرت عنها حرب التحرير ، وسيؤدي الاستقلال السياسي الى ثورة اجتماعية حقيقية والى استئصال الاقطاع وبقايا الاستعمار والعنصرية والتعصب . وستأخذ الدولة الجديدة بنظام الاصلاح الزراعي وتنفيذه لمصلحة الشعب والفلاحين واخذمة الاجيال القادمة من أبناء الجزائر .

وأدلى يوسف بن خدة رئيس حكومة الجزائر قبيل أن يفادر تونس في طريقه الى القاهرة بتصريحات أعلن فيها أن حكومة الجزائر ترفض ان تمنح المستوطنين الأوروبيين في الجزائر أية ضمانات اضافية خارج نطاق اتفاقيات ايفيان .

وقد رأينا سلسلة من المناورات التي تستهدف احباط هذه الاتفاقيات أو تعديلها .

وزعت قيادة جيش التحرير الوطني في الجزائر في ١٣ من يونيو عام ١٩٦٢ منشورات تدعو المستوطنين للوقوف في صف شعب الجزائر لتدعيم استقلاله .

وبدأت تظهر الأعمال الإجرامية التي يرتكبها بعض الفرنسيين بالتواطؤ الخفي أو السافر مع فئات من البوليس والجيش وأعضاء البرلمان . وكان هدف الاستعماريين الفرنسيين المتطرفين من قيامهم بأعمالهم التخريبية ان يظهروا كطرف في المسألة بغية خلق ظروف لاعادة النظر في اتفاقيات وتحقيق تقسيم البلاد .

ولم يبق على استفتاء تقرير المصير سوى عشرة أيام والأمن مضطرب في ربوع البلاد ، بل والفرقة الاجنبية في سيدي بلعباس مثالا تعلن العصيان السافر ، وتتدخل تدخلا مسلحا ضد الجزائريين .

وبدأت الاخطار تحقق بالجزائر . .

وبدأت الخلافات تظهر في الافق بين الزعماء والقادة أنفسهم .

أزمة الخلافة

وبدأت الفيوم تخيم فوق سماء الجزائر . الخلافات القديمة تظهر عائدة الى الوجود .

كان للخلاف الذى نشب فى قلب الجزائر طبيعته وأسراره . والحرص على أن تنجح الثورة الجزائرية فى مسعاها نحو التحرر والاستقلال فرض نوعا من السكوت وتناسى الخلافات ، التى ظلت قائمة . فالمعركة والقتال والعدو المتربص بالجزائريين يفتك بهم ، كل هذا يفرض نسيان كل شئ . . . الا الجهاد ، ووحدة الصفوف . .

شعر كل مواطن عربى بالأسى وهو يرى كارثة تحقيق بالنضال الجزائرى فى لحظة فرحه الكبير ويوم انتصاره . . . وبات كل انسان يشعر بأن وحدة الثورة الجزائرية على وشك أن تتمزق !

وتعقدت الازمة نتيجة للخلافات بين قادة الثورة . ولتعدد للوزار لحظات قلائل :

بدأت المشكلة حينما كان أحمد بن بيللا فى السجن ، والثورة المسلحة فى عنفوانها ، مما اضطر فرنسا أن تمنح مستعمراتها فى افريقية الاستقلال لكى تستطيع التفرغ الكامل للقضاء على الثورة الجزائرية .

وفى هذا الجو المقبض بدأت الحكومة الجزائرية المؤقتة برئاسة فرحات عباس - ومن ورائها مجلس الثورة الوطنى - تقود القضية نحو تحقيق الاهداف التى من أجلها كانت الثورة الجزائرية . ففرنسا مازالت تصر على أن الجزائر جزء من فرنسا عبر البحر المتوسط . وكان هدف مجلس الثورة الوطنى أن تعترف فرنسا بالجزائر « كمستعمرة » باعتبار أن هذا المبدأ خطوة أولى لا بد منها للوصول الى مرحلة الاستقلال الكامل . وبالفعل ، استطاعت الثورة العارمة أن تنتزع هذه الخطوة الاولى من فرنسا . ولم يكن هذا بالأمر الهين السهل كما يتصور البعض . لقد كان هذا أشبه بعملية البتر أحست بها فرنسا البرجوازية - الرأسمالية - ولا يمكن أن يتحقق هذا الا بفضل الثورة الشعبية التى أجبرت فرنسا على أن تفيق من غفوتها .

أما الحصول على الاستقلال الكامل فقد كان مرحلة أخرى . رأى مجلس الثورة أن يتبع طريق الكفاح السياسى . وهكذا جاء دور يوسف بن خده وحكومته المؤقتة - وهكذا رسمت سياسة تدويل القضية الجزائرية ذات الطابع الشعبى بمعنى التركيز على الكفاح الشعبى الجماهيرى - وجاء دور الجماهير الشعبية وخلاياها الثورية - فلقد بدأت الثورة المسلحة بوساطة ثوار - كونوا جيشا سريا فى الجبال والكهوف برياسة أحمد بن بيللا .

هذا في الوقت الذي قامت فيه التنظيمات السرية في المدن والقرى بمهمتها التي تقضى بتفجير القنابل والنسف والاغتيال . وكان دور الجماهير الشعبية هو دور العاطف على هذا الجيش السرى سواء في المدن أو في الجبال . وكان دور الجماهير الشعبية أيضا هو تبني كفاح الثوار الذين وهبوا حياتهم فداء للجزائر .

وحين بدأت مرحلة الكفاح السياسي بدأ معها الاتجاه الى تحريك جماهير الشعب للمطالبة بالاستقلال . اذ كانت القيادة الثورية تؤمن - وقت ذاك - أن الكفاح المسلح وحده لا يمكن أن يحقق الاستقلال - أما الشيء المؤكد ، فهو ان الجيش الفرنسي لا يستطيع ان يخضع الشعب كله اذا تحرك في شكل مظاهرات واجتماعات سلمية .

قد تستطيع فرنسا أن تقف أمام جيش التحرير حاشدة كل امكانياتها . أما الذي لا تستطيعه - مطلقا - فهو أن تواجه الشعب الجزائري كله - المطالب بحقه في الحرية والاستقلال . وكانت فرنسا تعتقد أن جيش جبهة التحرير منفصل عن الشعب . ولكن خاب ظن فرنسا هذه المرة . اذ استطاعت جبهة التحرير أن تكون الطليعة الثورية للجماهير الشعبية فشملت الثورة كل قطاعات الشعب الجزائري .

أدركت فرنسا هذه الحقيقة المفزعة ، حينما قامت مظاهرات شعبية واسعة النطاق شملت جميع الجزائر . وفوجئت فرنسا باضرابات بالفة الدقة في التنظيم . فوجئت بهذا التكتل الضخم الذي لا قبل لها به يدخل المعركة .

وبدأت فرنسا تتراجع الى الوراء أمام الحق - أمام الثورة الشعبية الشاملة - بدأت تتراجع - وطالبت بفتح باب المفاوضات مع الجزائر .

ودخل الطرفان في مفاوضات جديدة على مستوى آخر هذه المرة . ليست من أجل الاعتراف بجزائرية الجزائر ولكن للاعتراف بالاستقلال التام للجزائر الجزائرية . واعتبرت الحكومة المؤقتة برياسة « يوسف بن خدة » أن هذا الطور الجديد أو تحقيق هذه الخطوة الجديدة الناتجة عن كفاح الثوار واستمرارهم في العمليات الحربية ضد قوات الاحتلال ، اعتبرت أن هذا كله من صنعها ، ومن خلقها تماما كما كان طور « الكفاح المسلح » من صنع بن بيللا وزملائه وخلقهم وقيادتهم .

وأفرج عن بن بيللا وزملائه - وعادوا الى الجزائر بعد أكثر من خمس سنوات من السجن ومن الانقطاع شبه الكامل عن جبهة التحرير، ليجدوا أن أشياء كثيرة قد تغيرت : وسائل الكفاح نفسها قد تطورت ووجوه قواد الثورة جديدة عليهم . فان ابتعاد شخص أحمد بن بيللا عن المسرح قد جعل « القيادة الجماعية » تحل مكانه وتصبح هي الشعار شبه المسيطر . ولكن برغم هذه الاحداث العميقة التي مرت بها الثورة من بعد اختطاف أحمد بن بيللا وبعده عن مسرح الثورة على أرض الجزائر - ظلت هناك ثلاثة أشياء هامة لم تتغير :

- ١ - التأييد الساحق لأحمد بن بيللا في مجلس الثورة الوطني .
 - ٢ - شعبية بن بيللا ومكانته في جيش التحرير .
 - ٣ - شعبية بن بيللا ومكانته التاريخية في قلوب الشعب الجزائري .
- وكان بن بيللا ورفاقه يظنون أن الوضع الطبيعي هو أن يعود « قائد الثورة الاول » الى مكانته - على رأسها - وأن يتم هذا ببساطة ، ودون حاجة الى جدل أو صدام .

واجتمع مجلس الثورة الوطني في طرابلس - وكان من المفروض أن ينتهي الاجتماع بإعلان أحمد بن بيللا رئيسا للحكومة الجديدة ، وسكرتيرا عاما لمجلس الثورة الوطني وجبهة التحرير بعد تحويلها الى حزب ذي برنامج سياسي واضح وأهداف اجتماعية واشتراكية عربية . ولهذا تكونت لجنة تقدمت الى المجلس باقتراحين :

الاقتراح الاول : تتسحول جبهة التحرير الى حزب وقد وافق عليه المجلس بالإجماع .

الاقتراح الآخر : أن يتألف « مكتب سياسي » لهذا الحزب من سبعة أعضاء .

وكانت اللجنة التي تقدمت بالاقتراحين برئاسة أحمد بن بيللا ومحمد يزيد مقررهما . واقترح بن بيللا أسماء أعضائها .

ومن هنا بدأ الصراع والخلاف . فقد جاءت القائمة مكونة جميعها من أنصار بن بيللا خالية من أسماء أي عضو من أعضاء الحكومة الجزائرية المؤقتة .

وكان صراعا ميثوسا منه . فكان لأحمد بن بيللا أغلبية ساحقة في المجلس . وأي اقتراح سيقدمه سيوافق عليه . وهكذا وقبل أن يتقدم بالاقتراح غادر معظم أعضاء الحكومة الاجتماع متجهين الى تونس وسرعان ما لحقهم - قبل التصويت - بقية الاعضاء .

وانفض اجتماع طرابلس - وأعضاء الحكومة المؤقتة في ناحية وبن بيللا وزملائه في ناحية أخرى متمسكين بوجوب خضوع الحكومة المؤقتة لمشئته مجلس الثورة ورغبته .

وجرت اتصالات ومشاورات دون أن تصيب فائدة . وتخطى الخلاف مرحلة النقاش الى مرحلة العمل - فغادر أحمد بن بيللا تونس الى طرابلس قبل الاستفتاء . وقدم محمد خيضر استقالته احتجاجا على هذه التصرفات وفي ساعة متأخرة الليلة السابقة على الاستفتاء أصدرت الحكومة الجزائرية المؤقتة قرارها المشهور بمنزل « عوارى بومدين » قائد جيش التحرير وأركان حربه .

وكانت لحظة حرجة، فلقد تلقى الشعب الجزائري هذا النبأ بالاستياء والقلق . واتسعت هوة الخلاف بين الجسائين . وكان لهذا القرار الذي أصدرته حكومة بن خدة أثر عميق على نفسية أحمد بن بيللا وعز عليه أن

يحدث هذا لجيش التحرير وقادته ، الذين تحملوا أعباء المعركة المسلحة ،
فى يوم النصر •

وتمنى كل عربى ، اشفاقا ومشاطرة وجدانية مع اخوانه فى الجزائر
لو كان فى الطاقة ستر الخلافات الى مابعد الاستقلال والى مابعد الانتخابات
القادمة فى ١٢ من أغسطس عام ١٩٦٢ • ولكن الامانى شىء والواقع المرير
شىء آخر !

كان كل فريق يريد أن تكون له الكلمة العليا فى الحوادث ومقدرات
الامور ، ليكون زمام المستقبل فى يده • وذلك قبل اللحظة الحاسمة !

وفى الحقيقة كانت الحوادث التى انطلقت منها شرارة الخلافات
لا تستحق هذا العناء فى تاريخ أمة ضربت أدور مثل للتضحية والكفاح

وتمنى العرب فى كل مكان ألا ينشب الخلاف بين زعماء الجزائر •
وخاصة فى تلك المرحلة الحرجة من تاريخها •

يا لها من أزمة عنيفة مرت بالجزائر فى أخرج لحظات تاريخها المجيد!

وجد جمال عبد الناصر أن عليه دورا لا بد أن يؤديه ، وموقفا لا بد
من اتخاذه من أجل الجزائر ذاتها - ومن أجل حركة النضال العربى
عموما • دور وموقف لا بد من القيام بهما فى سبيل تجنب كارثة تحقيق
بالنضال الجزائرى فى لحظة فرحه الكبير •

قال جمال عبد الناصر - وهو يرسم خطوط سياستنا العربية - فى
تعليماته للسيد / على صبرى رئيس المجلس التنفيذى الآن ووزير رئاسة
الجمهورية حينئذ - قبل أن يطير ليجتمع بالقادة الجزائريين فى ليبيا
وتونس - ان سياستنا كما يلى :

أولا : أن وحدة الثورة الجزائرية ضرورية لحماية المكاسب التى
حققتها حتى هذه اللحظة ولمواصلة التقدم منها الى ما بعدها من أهداف
النضال الجزائرى •

ثانيا : ان لصيانة هذه الوحدة يجب أن يبقى الاتصال مفتوحا بين
الجانبين المختلفين فى الثورة الجزائرية ، كما انه لا بد من تجنب الصدام
بينهما مهما كانت الظروف •

وطار على صبرى الى تونس ، ثم الى بنغازى ومعه كريم بلقاسم
ليجتمع مع أحمد بن بيللا • ثم طار الى تونس ، وعاد الى القاهرة والمعجزة
التى طار من أجلها الى المغرب ما زالت ماثلة فى الأفق • لم تتحقق • •

ويبدو أن أزمة الخلاف كانت قد قطعت شوطا فى طريق اللاعودة ،
فأضحى الوفاق أمرا بعيد المنال !

ان الخلاف بين قادة الثورة فى الجزائر عميق وقديم ومستمر • • •

ان محاولة التوفيق بين قادة الثورة أصبحت مشكلة ، فقد خرج

الخلاف العميق القديم المستمر بينهم على المسرح المكشوف بعد أن أصدرت الحكومة قرارها بعزل قائد جيش التحرير وأركان حربه .

الجهود والآمال والدعوات أصبح من المحتم توجيهها الى تجنب الصدام المسلح أو بمعنى أدق الى منع حرب التحرير من أن تتحول الى حرب أهلية ...

وفجأة طار أحمد بن بيللا الى القاهرة بعد أن ضاق ذرعا بالازمة المفاجئة التي تكاد تطيح بالمكاسب التي حققتها الثورة حتى هذه اللحظة . فالجيش الفرنسي ما زال بالجزائر والمنظمة الارهابية السرية ما زالت تعيث بالبلد ، وتنتهك مقدسات الجزائر ، وأقل اخلال باتفاقية إيفيان يعيد الى الجزائر حالة من الفوضى والاضطراب أشد وأقسى من الحالة قبل وقف اطلاق النار .

كان للزعيم أحمد بن بيللا رأى فى أزمة الخلاف الناشبة الحادة وكان لا يستطيع أن يتصور أن الحكومة تدخل أرض الجزائر ، وفى اللحظة نفسها تصدر أمرها بعزل قيادة جيش التحرير التي تحملت ضراوة المعركة من أجل النصر الذي جاهدت من أجله سنوات كثيرة .

ولهذا رفض بن بيللا دخول الجزائر مع أعضاء الحكومة القائمة ؛ رأى انه لو فعل ذلك فانه يخون رفاق المعركة الذين تحملوا على أكتافهم سنوات طويلة من الكفاح المسلح .

كان بعض أعضاء الحكومة المؤقتة يظنون ان الشعب الجزائري ، بعد كل الذى قاساه ، لن يهتم بأى فرد مهما كان دوره . . كان بعضهم يظن أنه لو دخل اليوم اثنا عشر تلميذا - من تلاميذ المدارس - وقالوا للشعب : نحن حكومة الجزائر لصفق الشعب لهم ، ولرقص فرحا وطربا لهم . وعلى هذا الأساس الخاطيء ، بنت الحكومة قرارها . وظننت ان الشعب فى لحظة النصر ، سينسى كل شيء طالما تحقق له الاستقلال بعد أكثر من مائة وثلاثين عاما !

وقال أحمد بن بيللا ان ذهاب بعض أعضاء الحكومة من طرابلس ادى الى خلق « فراغ سياسى » خطير فى الثورة - فى الوقت الذى لم يعد يفصل فيه بين الجزائر وبين الاستفتاء الا عشرون يوما . ولم يتحقق بعد استقلال الجزائر بالصورة القانونية التى نصت عليها اتفاقية « إيفيان » وقال بن بيللا أنه كان يمكن للاستعمار أن يتفرع بوجود هذه الازمة ليؤجل استقلال الجزائر ، ويعمد الى مناوراته المخزية المضرة بمستقبل الوطن .

وأضاف بن بيللا قائلاً : « ولهذا قررنا أن نثير الموضوع بمجرد حصول الجزائر على استقلالها . لاننا لا يمكن أن نوافق على هذا - لان هذا معناه تخريب أعمال مجلس الثورة ، وقبول سابقة خطيرة ضد ثورتنا . وذلك أن برنامج جبهة التحرير كان ينص على أن « المكتب السياسى » هو الذى يتولى تسيير شئون البلاد على حين تقتصر مهمة الحكومة على التمثيل

الخارجي فقط. وعلى هذا الأساس تكون النتيجة - ولو توقفت أعمال المجلس الوطني للثورة والحيلولة دون مباشرة المكتب السياسي لمهمته - هي أن تقوم الحكومة الجزائرية الحالية بسلطات « المكتب السياسي » عمليا - وذلك يعني اغتصاب السلطة - وهو ما لا يمكن السماح به لأنه يؤدي الى أخطار كبيرة » .

وأضاف بن بيللا قائلا : « تلك هي الاسباب والعوامل الاساسية التي دعتنا الى رفض الدخول الى أرض الجزائر ، مع الحكومة الحالية لان ذلك معناه قبول أوضاع زائفة تقوم على أغراض شخصية بحتة » .

وبعد ذلك تحدث بن بيللا عن الاتصالات التي تمت بين المكتب السياسي وبعض أعضاء الحكومة داخل الجزائر . وقال ان وعى المناضلين المجاهدين جعلهم يندفعون الى تأييد المكتب السياسي . وبدأت بوادر « الخلاف » تلوح في الأفق . وأوفد المكتب السياسي السيد / محمد خيضر لاجراء اتصالات في العاصمة . ولكن دون نتيجة ايجابية .

وبعد ذلك تحدث أحمد بن بيللا عن المهام العاجلة التي تنتظر جبهة التحرير فقال :

« ان أول هذه المهام مسألة تكوين الحزب الواحد ، واعادة تنظيم الدولة . وأما فيما يتعلق بالحزب فاننا نعتبره الطليعة الثورية للشعب الجزائري - ولا يمكن أن يصبح ملايين الجزائريين أعضاء في الحزب بل يجب أن تنضم فقط الطليعة المناضلة - ولهذا يجب أن توضع مقاييس الاختيار بالنسبة للمناضلين الذين يعدون بالملايين - ولكن هناك من يعترض قائلا : ماذا تفعل بالآخرين الذين كانوا أعضاء في الجبهة ؟ والجواب على هذا التساؤل بسيط - وهو أن الحزب سيضم أعضاء مناضلين والى جانبهم الانصار والمؤيدين » .

« وعلى هذا الأساس الذي يقوم عليه الحزب يمكن أن يعطى فكرة صحيحة عن علاقاته بالمنظمات الوطنية الاخرى . فاذا كان من الضروري أن يؤدي الحزب دورا كبيرا داخل المنظمات النسائية ، والطلابية، والجيش ... الخ . فانه ليس من الممكن أن يكون أعضاء هذه المنظمات جميعا أعضاء في الحزب » .

وتحدث بن بيللا بعد ذلك عن الديمقراطية فقال :

« اننا أخذنا بمبدأ الحزب الواحد - وانه من الخطأ أن ننظر الى الديمقراطية في بلادنا على أنها الرجوع الى الأعياب الاحزاب السياسية ،

فالجزائر - في المستقبل - في حاجة الى تماسك داخلي - نحتاج الى ثورة أخرى من أجل المستقبل - ولا يمكن أن تتحقق أهداف النضال والثورة كاملة الا اذا حافظنا على وحدة الصفوف . ومن أجل هذا يجب أن نمنع تعدد الاحزاب التي تمزق وحدة الشعب الواحد .

وأهم وسيلة لتحقيق الديمقراطية ، هي خلق روح المبادئ والتد

الذاتى الهادف البناء . فيجب أن تنطلق الافكار والاقتراحات بين القمة والقاعدة .

هذه هى الصيغة الديمقراطية السليمة التى تزدهر فى ظلها حرية التفكير والتعبير . ويكون لها طابع ايجابى خلاق - يدعم وحدثنا - من أجل مستقبل أفضل للجزائر المستقلة » .

وطالت أيام الخلاف ، وكادت تضيق مكاسب الثورة من الجانبين المختلفين .

ولكن أحمد بن بيللا كان له رأى حاسم فى مثل هذه المواقف .

لقد أُلِفَ الازمات وأوقات الشدائد فهو رجل لا تهيمه نفسه ، يضع بلده فى الاعتبار الاول .

قرر أن يمضى فى طريق الثورة . الطريق الذى قطع فيه هو وزملاؤه أشواطاً بعيدة .

قرر أن يقوم المكتب السياسى المكون من سبعة أعضاء بالمهام التى تتطلبها الحالة من أجل اجراء الاستفتاء الذى بمقتضاه ستصبح الجزائر دولة حرة مستقلة وتأخذ الصفة القانونية لهذا الاستقلال الذى جاء بعد اجراء الاستفتاء حول تقرير المصير فى أول يوليو ١٩٦٢ .

وحدد يوم الاستفتاء فى ٢٠ من سبتمبر عام ١٩٦٢ . واقبل الشعب يؤيد أعضاء المكتب السياسى الذى سيدبر دفة الامور فى الجزائر .

وفى مساء ٢٠ من سبتمبر عام ١٩٦٢ أذاع محمد خيضر الأمين العام للمكتب السياسى كلمة من اذاعة الجزائر المستقلة بمناسبة فوز المرشحين للمكتب السياسى بأغلبية ساحقة قال فيها : « أيها الشعب .. اليوم أعلنت ارادتك واضحة بتصويتك الاجماعى لمصلحة مرشحى المكتب السياسى . وكان ذلك دليلاً آخر تقدمه للعالم على أن الارادة الشعبية هى الضمانة السياسية لقيام جزائر حرة مستقلة ! .. »

وقال ان هذا التصويت اعلان للسيادة الشعبية وانهاء لعهد الغموض والاضطراب وبداية لعهد البناء على أساس قرارات المجلس الوطنى للثورة الجزائرية فى طرابلس .

وقال خيضر : « ان المكتب السياسى يعاهدك أيها الشعب أن يعمل بكل الوسائل لتنفيذ البرنامج الوطنى الذى أقره الشعب اليوم . ان أول عمل للمجلس التأسيسى هو تعيين أول حكومة مستقلة تعمل على تنفيذ البرنامج الذى أعلنته جبهة التحرير الوطنى كما ستضع القواعد الأساسية لنظم الحكم » .

وشكر محمد خيضر الشعب نيابة عن أحمد بن بيللا على الثقة التى منحها للمكتب السياسى وجبهة التحرير الوطنى . وقال : « اننا نعاهد الشعب على اننا لن ندخر وسعاً فى الضرب على الايدى التى تعمل سرا ضد

النظام حتى يستطيع كل مواطن أن يؤدي واجبه في ظل الديمقراطية والحرية والرخاء . ان مفزى هذا التصويت انه بين مدى ثقة الشعب بالمكتب السياسى وبرجال المكتب وبخاصة البرنامج الذى أقسره مجلس الثورة فى طرابلس . وأن الشعب الجزائرى، وهو المعروف بالبطولة، قد أظهر اليوم أن له من النضج السياسى ما يجعله يختار الطريق لبناء المستقبل . اننا سننطلق فى ثورة ثانية للبناء ، ولمساعدة اخواننا فى كل مكان ! »

ولقد اشترك فى هذه الانتخابات ٧٥ فى المائة من النساخبين الجزائريين : وأعلن أكثر من خمسة ملايين نسمة ثقتهم بالمكتب السياسى . وهكذا قامت أول سلطة عربية وطنية فى الجزائر . : سلطة ثورية يتولى رئاسة الحكومة فيها أحمد بن بيللا ويتولى رئاسة البرلمان فرحات عباس .

وفى يوم ٢٨ من سبتمبر عام ١٩٦٢ قامت الحكومة الجزائرية الجديدة على الوجه التالى :

أحمد بن بيللا	رئيس الوزراء
رابح بيطاط	نائب رئيس الوزراء
كولونل هوارى بو مدين	وزير الدفاع
عمر بن تومى	وزير العدل
دكتور أحمد فرنسيس	وزير المالية
محمد خميسى	وزير الخارجية
عمر أوزجان	وزير الزراعة والاصلاح
أحمد متغارى	وزير الداخلية
محمد خبيزى	وزير التجارة
العروسى خليفة	وزير الصناعة والبلديات
أحمد بومنجل	وزير التعمير والاشغال والنقل
بشيرى بومعيزة	وزير الشؤون الاجتماعية والعمل
عبد الرحمن بن حميدة	وزير التعليم الوطنى
محمد شغفير النقاش	وزير الصحة
عسنى مؤنلى	وزير البريد والبرق والتليفونات
محمد السعيد	وزير المحاربين القداماء وضحايا الحرب

أحمد توفيق المدني وزير الاوقاف
محمد حاج حمو وزير الاستعلامات
عبد العزيز بوتفليكه وزير الشباب والرياضة

ومضت أيام ، ظن فيها الناس أن لهيب الازمة قد انطفأ وان السلام سيرفر على ربوع الجزائر الى الأبد !

الشعب الجزائري الذي خاض غمار حرب ضروس طوال سنوات مريرة أصبح يكره الحروب ويكره الخلافات ويتلهف على السلام والبناء . ولم تكدم تمضي أيام قلائل على دخول أعضاء المكتب السياسي الى العاصمة وأجراء الاستفتاء ، حتى عادت من جديد عاصفة الازمة الاولى ، فانقسمت الولايات الى فريقين .

والازمة الاولى تختلف عن الثانية في طبيعتها ، وأسيائها - فالازمة الاولى كانت بين أعضاء الحكومة المؤقتة ، وبين أحمد بن بيللا ومؤيديه - والازمة الثانية كانت بين ولايت لجزائر الست - كلت أربع ولايات تؤيد أحمد بن بيللا والمكتب السياسي وهي :

الولاية الاولى - والثانية - والخامسة - والسادسة .

أما الولاية الثالثة - والرابعة فهي مع كريم بنقاسم وبوضياف .

وقوات جيش التحرير كان لها موقفا آخر من هذا الخلاف الأخير . فبعض الضباط أرادوا الاشتغال بالسياسة - ولكن المكتب السياسي خیرهم بين الاشتغال بالسياسة وأشغال الوظائف المدنية ، وبين يقائهم بالجيش .

ان قوات جيش التحرير - كما أعلن أحمد بن بيللا - ستتحول الى جيش وطني موحد مدرب على أحدث النظم العسكرية - ولا يصح أن يبقى كل مجموعة من المجاهدين بزيهم الخاص ، وبأسلحتهم المختلفة - فجميع أفراد الجيش سيخضعون لرياسة عليا ، وتسلسل في القيادة . ولكن بعض الضباط عارضوا هذه الفكرة ، وأصروا على الاحتفاظ بسلطاتهم المطلقة التي كانت مخولة لهم فترة المكفاح والثورة .

ولكن أحمد بن بيللا صرح لهم بأن طبيعة المعركة والبلاد كانت تحتم عليهم أوضاعا معينة . ولكن الآن - وقد تحقق الاستقلال للجزائر - فلا يتمشى هذا مع الظروف الراهنة . لدولة مستقلة سيكون لها جيش واحد ، منظم يخضع لقيادة عليا .

والدعوات تنبعث من كل قلب لتتصير ثورة الجزائر حتى النهاية . والجهود ما زالت تبذل للتوفيق بين القادة الذين اختلفوا في اللحظات الحاسمة من تاريخ الجزائر .

العاصفة تمر بسلام

ومرت العاصفة بسلام ، عاصفة الخلافات التي عبطت على أرض الجزائر . كان وجه الغرابة في هبوبها انها جاءت مفاجأة في يوم النصر - اليوم الذي انتظرتة أجيال تلو أجيال . وكان أحمد بن بيللا على موعد مع القدر . فقد حقق لوطنه الاستقلال ، وسوف يرحل الفرنسيون عن الجزائر عما قريب . كانت حتمية النضال الجزائري أقوى من كل امكانيات فرنسا وحلفائها ، بل وأكاذيبها ومفترياتها ، الحقائق لا تمحوها الاباطيل المزعومة ، وأحمد بن بيللا وهب نفسه لبلاده فلم تهمة العواصف ورياح الخلافات .

ومرت العاصفة وخرج أحمد بن بيللا منتصرا بانتصار الجزائر ، انه رمز الشعب الجزائري الذي ضحى بأكثر من مليون ونصف مليون شهيد ، وكفاح مريب دام سبعة أعوام ونصف عام . ورمز معبر عن عشرة ملايين جزائري : أحمد بن بيللا شخصية حية معبرة ، أصيحت قوى الشر والظفيان ، وهي عميقة الجوانب ، عمق تاريخ الشعب الجزائري وماضيه .

وسنعيش لحظات في أيام من حياة أحمد بن بيللا لنذكر حقيقة شخصيته التي تعتبر رمزا للشعب بأسره وجيلا بأكمله .

بن بيللا الزعيم ذو قلب كبير ، متواضع ، نادر لذاته . والادلة على ذلك في حياته لا حصر لها ، يضيق بها كتابنا . فقد حدث أن أقيم احتفال شعبي كبير ابتهاجا بيوم الاستقلال في مدينة « تياريت » ، وأقيم عرض عسكري ليشهده المجاهد الأول .

كان محافظ المنطقة قد أعد له سيارة مكشوفة . ولكن بن بيللا أصر على أن يركب معه زملاؤه جميع أعضاء المكتب السياسي . وأصر على تقديمهم عليه . وأحمد بن بيللا لا يفعل ذلك تكلفا وتصنعا أو وفقا لمقتضيات الزعامة ، ولكن هذه هي تصرفاته الطبيعية وهي جزء من شخصيته .

انه لا يتقدم المجموع وحده ، بل يسير دائما الى جانب زملائه أعضاء المكتب السياسي .

انه يرفض دائما مقعد الصدارة ويصر على ان يجلس فيه احد زملائه .

من عادته الاستيقاظ في الصباح مبكرا ، وينتظر ساعتين حتى يستيقظ باقي زملائه لينهبوا معا لتناول الافطار .

أحمد بن بيللا الذي أصبح زعيماً لابطال الجزائر ، وأصبح رئيساً للحكومة الجزائرية ، لا يعرف الانانية أو الفطرسية . فقد حدث عندما انتهى العرض العسكري والاحتفال الشعبي في تياريت أن همس المحافظ في أذن أحمد بن بيللا بأن منزله معد ليستريح به فترة الظهر .

وسأل بن بيللا المحافظ على الفور : « وباقي الاخوان أين يستريحون ؟ » قال المحافظ : « لقد أعددت لهم بعض حجرات في مبنى المدرسة العليا » .

وأجاب بن بيللا في حزم : « اذن سأذهب معهم الى هناك » .

وذهب بن بيللا وأعضاء المكتب السياسي وقادة الجيش الى وهران بعد ذلك : وهران هذه التي تضم عدداً لا حصر له من أعضاء المنظمة السرية الذين تركوا آثار التدمير والتخريب واضحة فوق كل مبنى بالمدينة .

وقبل أن يذهب بن بيللا اليها سبقته تحذيرات كثيرة ، بالأخص الخطة التي يرسمها جيش التحرير بالمنطقة لتنقلاته .

ولكن بن بيللا كبير القلب . فما أن التقى بشعب وهران لأول مرة بعد سجنه الطويل ، حتى نسي كل شيء : نسي كل التعليمات ، واندفع نحو الشعب الذي وقف ينتظره الساعات الطويلة ؛ ليصافحه ويعانقه . ان هذا الشعب يعرف فيه اناساً كثيرين ، ويعرف دور بعضهم خلال سنوات النضال المرير في تياريت وفي تلمسان وفي وهران ...

كان أحمد بن بيللا يلوح عاملاً بسيطاً يقف خلف هذه الصفوف فيترك كل شيء ويذهب اليه ، ويعانقه عنقاً حاراً ، ويسأله عن أحواله وأحوال أسرته ، ويظل كذلك يضع دقائق ثم يلوح زميلاً آخر من زملاء الكفاح فيتكرر المشهد نفسه .

ألم تقل ان هذا الكتاب لا تتسع صفحاته لسرد الأمثلة من حياة أحمد بن بيللا وتصرفاته الشخصية التي يمتاز بها الأخ المجاهد - الانسان - الاستاذ والزعيم .

ومشهد آخر حدث عندما كانت الاجتماعات مستمرة : الاجتماعات هذه المرة ثنائية أو ثلاثية . كل مجموعة مكلفة ببحث موضوع معين ، ثم تعرض نتيجة بحثها في الاجتماع العام .

وعندما كان بن بيللا يرغب في معرفة شيء ما أو استطلاع رأي معين من أحد افراد هذه المجموعات ، فإنه كان لا يستلعيه بل يذهب اليه حيثما كان ، وينحني عليه يسأله عما يريد ، ثم يعود الى مكانه .

وحين عندما اضطرته الاحداث الى استدعاء زملائه أعضاء المكتب السياسي الذين كانوا يقيمون في الجزائر لحضور اجتماع للمكتب في مدينة تلمسان ، كان بن بيللا يحرض على أن يذهب بنفسه الى المطار ، في هوعد وصول كل منهم ليستقبله ؛ ويرافقه من المطار الى الفندق .

أما فترة اعتقال بن بيللا وزملائه ، فقد أتاحت له فرصة دراسة قضية بلاده من جميع أوجهها : درس في السجن جميع خطط التنمية في العالم ، وفرق بينها واختار منها ما يلائم بلاده ، بل أكثرها ملاءمة لظروف بلاده وظروف شعبه .

والتخطيط هو الصراط المستقيم الذي يسير عليه أحمد بن بيللا ويعمل بمقتضاه . يؤمن به ، ويخضع له . يدرس كل موضوع بعمق ، وبعد له تخطيطا لكل مراحله ، ثم يقدم على عمل ما يريد .

ان بن بيللا يدرك جيدا ما تحتاجه بلاده من خطط التنمية أنه يعرف جيدا ظروف بلاده ، ويحفظ عن ظهر قلب جميع أرقام الخطط التي رسمها بعد أن درس امكانيات بلاده ومواردها وظروفها الاقتصادية .

وكان بن بيللا يفهم معنى ما يقول عندما أعلن بعد دراسة مستفيضة أن ظروف الجزائر ومواردها ومساحتها تجعل في قدرتها استيعاب ثلاثين مليون عربي .

وفي خلال فترة السجن قرأ بن بيللا أكثر من ألف كتاب سياسي . لقد أحاط علما بجميع قضايا العالم ومشكلاته احاطة كاملة على أساس من الفهم الواعي العميق .

أتاحت له هذه الفترة فرصة تتبع التجربة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في الجمهورية العربية المتحدة ، وغيرها من الدول الاشتراكية ، ووجد أيضا تجربة الجمهورية العربية المتحدة ، أكثر ملاءمة لطبيعة بلاده وشعبها . قهى التجربة الاشتراكية الوحيدة التي تنبع من الواقع العربي لتلائم احتياجاته ومتطلباته .

واستطاع بن بيللا أن يدرس في توسع التنظيمات المختلفة في الدول الاشتراكية . واستطاع أن يدرس كذلك النظم الحزبية المختلفة في أوروبا وآسيا وأفريقية .

وقد خرج بن بيللا من دراساته الى اصراره على ضرورة قيام حزب واحد فقط في الجزائر . وخرج بمجموعة من الافكار الجديدة التي يجب ادخالها على جبهة التحرير الوطني حتى يمكن أن تصبح حزبا سياسيا قويا . وفي مقدمة هذه الافكار فكرة المكتب السياسي .

واستطاع بن بيللا خلال فترة سجنه أن يصلح من لهجته العربية ، فأصبحت سليمة يمكن أن تفهم في أي مكان عربي . وهو يتحدث باللغة العربية في أحاديثه العادية . غير أنه يلجأ دائما الى الحديث باللغة الدارجة في الجزائر ، في خطبه وفي اجتماعاته السياسية حتى يفهم الجميع كل ما يقول . وهو يلعن الاستعمار الفرنسي الذي سيطر مائة وثلاثين عاما على مقدرات الامور في الجزائر ، فمسح لفتها وغير معالمها ، ولكنه لم يغير الشعب الجزائري ، ويأمل بن بيللا أن يكون لاذاعات القاهرة والافلام العربية والسياسة التعليمية العربية الجديدة (تعريب التعليم) أثرها الواضح السريع في نشر اللغة العربية في ربوع الجزائر .

ويحرص أحمد بن بيللا على أداء جميع أعماله بنفسه . وبالرغم من مسئولياته المتعددة ومقابلاته التي لا تنتهي والأعمال الإدارية الكثيرة التي يحتمها عليه مركزه واختصاصاته ، والأعباء الملقة على عاتقه ، فإنه ليس له أى مساعد ، وإلى وقت قريب لم يكن له سكرتير أيضا . ثم تطوع أحد الفدائيين بالقيام بأعمال السكرتارية .

ولهذا الفدائي قصة فيها دور كبير قام به . لقد كان يعمل مدرسا فى باريس عندما اعتقل بن بيللا وزملاؤه . وطلب جيش التحرير اليه العمل على حمل الانباء اليومية والصحف والكتب الى أحمد بن بيللا أولا بأول . وتعهد المجاهد بتنفيذ المهمة الصعبة ، وبذل مجهودات عجيبة لعدم الاخلال بها طيلة سنوات الاعتقال .

وبعد الافراج عن بن بيللا ، غادر المجاهد الجزائرى باريس ليعمل داخل الجزائر . وعندما لمس حاجة بن بيللا الشديدة لمساعدين ، عرض عليه العمل كسكرتير له بلا مقابل ، وفى خجل وافق أحمد بن بيللا .

والزعيم الجزائرى أحمد بن بيللا شاب رقيق، مهذب ، تطفى المشاعر الانسانية على كل خلجة فيه . فعند ما دخل الجزائر لأول مرة ، وكان بعض رجال الحرس المكلفون بحراسته يلزامونه دائما ، كان يشعر بخجل شديد نحوهم ، وكان يدعوهم للعشاء أو الفداء أو الافطار كل يوم .

وهناك قصة والدة الزعيم التي تبلغ من العمر اكثر من ثمانين عاما وكانت تعيش فى المغرب فى بلدة « وجدة » التي لا تبعد اكثر من سبعة كيلومترات عن حدود الجزائر : البلدة التي عاش فيها عدة آلاف من اللاجئين الجزائريين قبل أن تتحرر الجزائر .

لم يكن أحمد بن بيللا قد رأى والدته منذ اكثر من عشر سنوات . وهى تعيش على أمل واحد وهو أن تراه بعد أن يفرج عنه الفرنسيون ، نعم هذه كانت أمنيتها . كانت آخر مرة رآته فيها فى عام ١٩٥٢ ، قبل أن يفر من الجزائر متسللا الى القاهرة .

بقيت الأم تردد فى دعواتها فى كل ليلة بلهجتها الجزائرية : « الله حارسك يا ابنى » وكان بن بيللا يرسلها وهو فى القاهرة ، ويتلقى منها فى كل أسبوع أو أسبوعين رسالة ليتعرف أخبارها .

وعندما اندلعت الثورة فى ربوع الجزائر بعد أول نوفمبر عام ١٩٥٤ . قام الفرنسيون فى أوائل عام ١٩٥٥ بالتنكيل بعائلة أحمد بن بيللا انتقاما منه لدوره مع زملائه فى تنظيم الثورة بها . وكانوا أن قبضوا على زوج شقيقته ، وألقوا به فى أحد معتقلاتهم فى قلب الصحراء ، كما قتلوا اثنين من أعمامه .

وعرفت قيادة جيش التحرير الجزائرى فى اقليم وهران ان الفرنسيين يزعمون القبض على أم أحمد بن بيللا ، فبادروا بنقلها سرا عبر حدود الجزائر الى بلدة وجدة . وهناك عاشت الام فى هذه القرية كاي امرأة جزائرية تقوم بدورها - برغم تقدم سنها - فى خدمة قوات جيش التحرير الجزائرى .

وكان أحمد بن بيللا ينوى زيارتها في أول فرصة تسنح له عندما ذهب إلى المغرب سنة ١٩٥٦ ، ولكن الوقت لم يسعفه واضطر أن يرافق زملاءه في الطائرة الفرنسية إلى تونس حيث تم اختطافهم .

وبقيت الأم على موعد مع ابنها يراودها الأمل نفسه في كل يوم ، بل في كل ساعة ولحظة : تريد أن ترى ابنها مرة واحدة قبل أن تموت !
وكان اللقاء إنسانيا رائعا بين الوالدة وابنها الذي عاد إليها بعد سنوات السجن الطويلة !

عندما ذهب إلى وجدة والتقى مع الجماهير المتحمسة رأى لافتات ارتفعت في كل مكان تحمل هذه العبارات :

« الثورة من الشعب وللشعب - التاريخ يهزم الادعاءات الباطلة ويؤيد الآمال الرحاب - لا يمكن خداع الشعوب - مرحبا بك يا أبا الشعب » ...

هذا الشعار الأخير «أب الشعب» هو الذي كان يورق أحمد بن بيللا وكل رفاق القيادة . انه يضع على أكتافهم مسئولية المستقبل ، بل ويلقى عليهم تبعة خطوات الغد .

وعينا بن بيللا تنطق بالمسؤولية ، في أعماقهما ترى صورة شعب الجزائر : مليون شهيد ومليونين ونصف مليون معتقل ومهاجر وتسعة ملايين معظمهم من الفلاحين .

ومواقف بن بيللا الانسانية كثيرة . .

اختيرت إحدى العمارات لتكون مقر المكتب السياسي ، فطلب من بواب المسكن أن ينتقل بأسرته إلى مسكن آخر ، ولكنه لم يعثر على مسكن ، ولجأ البواب إلى أحمد بن بيللا طالبا الاستمرار في شغل مسكنه بالعمارة بعض الوقت حتى يجد مسكنا مناسباً . فسمح له أحمد بن بيللا بالبقاء . وعندما اعترض بعض زملائه على هذا قال لهم : « لقد ذقنا التشريد زمنا طويلا ، ويجب علينا ألا نمارسه ضد أحد ممن لا ذنب لهم حتى ولو كان فرنسيا - اننا لو فعلنا شيئا كهذا نكون قد فقدنا روح انسانية ثورتنا »

أما عن آراء أحمد بن بيللا السياسية فإنها تمتاز بوضوح التفكير وقد عبر بنفسه عن ذلك عندما قال : « أنا أحد أفراد مدرسة الصراحة التي أوجدها جمال عبد الناصر » .

انه لا يؤمن باللف والدوران ، ويرى أن من حق الشعب أن يعرف كل شيء أولا بأول . فلقد كان يصرح بسياسته ويعلمها وأضحى ، وحذره من ذلك محترفو السياسة ولكنه أعلن : « لا مكان لمحترفي السياسة بين صفوفنا » . لقد حصلنا على الاستقلال بالثورة ، وسنبقى بلدنا بالثورة - لا قوة ولا مستقبل ولا حياة للشعب بغير الجيش - ولا حياة ولا وحدة للجيش بغير الشعب »

ومن خطاباتاته التي ألقاها وتصريحاته التي أعلنها اتضحت سياسته وطريقته في التفكير والبناء . وكان يدرك جيدا أن مفاوضات إيفيان لم تكن هي المثلى . حتى أنه قال : « هل يريدون أن أصبح بحمد اتفاقيات إيفيان ؟ لا لن أفعل ولن يفعل هذا واحد في هذا البلد . نحن نعرف أن الفرنسيين يعلمون جيدا أن هذه الاتفاقيات لم تحقق أهداف ثورتنا كاملة ، ولكنها كانت حلا وسطا حتمته ظروفنا كبديل لاستمرار الحرب وإسالة الدماء بين الطرفين . وقد قبلها المجلس الوطني للشورى الذي أشرف بعضويته ومن ثم أصبحت واجبة الاحترام والتنفيذ . ولقد أعلنت باسم المكتب السياسي أن هذه الاتفاقيات تمثل دستور التعاون بيننا وبين فرنسا ، وأنها يجب أن تحترم وتنفذ نصا وروحا . أننا سنقاوم استغلال اتفاقيات « إيفيان » لتكون منفذا خفيا إلى إعادة السيطرة والاستعمار الجديد ونريدها بكل صدق وإخلاص أن تفتح عهدا جديدا من التعاون وتبادل المنافع بين الجزائر وفرنسا . ولقد طلبت من الأخ عبد الرحمن فارس رئيس المجلس التنفيذي أن يباغ ذلك بصراحة وجلاء إلى الحكومة الفرنسية »

ويمتاز أحمد بن بيللا بالشخصية المتزنة ، القوية ، العميقة الجوانب ، له هدوء عجيب . تثيرك دبلوماسيته في الحديث . ولكن في أعماقه رجل يغلي بالثورة ضد الاستعمار والتخلف . رجل يؤمن بنفسه ويؤمن بوطنه ، وينكر ذاته ، لا تهمه مصالحه الشخصية ، ومصالحه الجزائر تمر قبل أي اعتبار آخر .

وكان يعرف عن أحمد بن بيللا في فترة الكفاح المسلح أنه « الشخص الذي لا يتكلم ولا ينام أبدا » أما بعد الاستقلال فكان لابد من الكلام . . . لابد من الصراحة والوضوح أمام هذا الشعب البطل . كل ما يدور بخلد ي قوله للشعب . لا يهدأ ولا يستريح . يجند كل قواه من أجل بناء الجزائر . ويعبى إمكانات الشعب كلها من أجل تثبيت الاستقلال . بدأ تنفيذ سياسة الإصلاح الزراعي ، واعتبره حجر الزاوية في التطبيق الاشتراكي بالجزائر . ورأى أنه من الضروري وضع خطة شاملة للتصنيع والتنمية ، للقضاء على البؤس والبطالة التي خلفها الاستعمار . ويتحتم عليه تعبئة الشعب كله لتنفيذ هذه الخطة في أقصر وقت ممكن حتى تعوض الجزائر ما فاتها ، وتلحق بركب التقدم .

ورأى أحمد بن بيللا أن حتمية التعبئة الشاملة تقتضي توحيد جهود الجزائريين أيضا في إطار سياسي واحد وآمن بنظام الحزب الواحد من أجل بناء مستقبل الجزائر . أنه جبهة الحزب الوطني ، وقيادة سياسية واحدة هي « المكتب السياسي » المنبثق من الجبهة ، ويتكون من أحمد بن بيللا وزملائه من القادة الجزائريين . الآن يمكن لجميع الجزائريين العمل في إطار الجبهة . وقد عبر أحمد بن بيللا عن هذا المعنى بقوله : « لقد حررنا البلاد نتيجة لتوحيد جميع القوات في الجبهة . والمهمات التي نحن قادمون عليها أخطر وأصعب من كل ما واجهناه في الماضي ، وهي تتطلب الوحدة الكاملة . والجزائر التي رزحت تحت نير الاستعمار وقاست منه قرنا وربيع قرن من الزمان سوف تساند الدول التي تنشد الحرية والاستقلال . وسوف تشارك في السياسة العالمية ، وعلى وجه الخصوص

في الشمال الافريقي والعالم العربي والقارة الافريقية . ستقف الجزائر مع الدول المغلوبة على أمرها ، ومع الدول المحبة للسلام . وستتمتع بسياسة الجزائر الى خارج حدودها للقضاء على الاستعمار بشتى أنواعه .

وموقف أحمد بن بيللا من القومية العربية أوضح من أن يفسره أحد . لقد أعلن في أول بيان لجبهة التحرير الجزائرى : « ان الأسس العقائدية لثورتنا تتلخص في عروبتنا وإسلامنا . هذه هي الحقيقة » .

نعم هذه هي الحقيقة التي حاول المستعمر الفرنسى أن يمحوها من قلوب الجزائريين ومن تاريخ الجزائر ، وحاول أن يمحو اللغة العربية والدين الإسلامى وعروبة الجزائر . . . ولكنها استقلت . . . وليست الآن ولاية فرنسية عبر البحر المتوسط .

وقد تبلور الاحساس بالعروبة العميقة منذ اللحظة الاولى لحرب التحرير في أول نوفمبر عام ١٩٥٤ ، فلقد تأكدت هذه المعانى بموقف العرب جميعا من ثورة الجزائر .

وأشار أحمد بن بيللا في خطاب له بالمجلس الوطنى قائلا : « ان بلادنا تنتمى تاريخيا الى الثقافة العربية الإسلامية ، ولها مكانتها لدى الشعوب العربية . والعروبة فى مفهومنا حضارة وأخلاق وثقافة ونموذج حياة ، ومجموعة من التقاليد يتمسك بها شعبنا بجميع طبقاته » .

وقد أوضح أحمد بن بيللا فى تصريحاته ان الوحدة العربية لابد أن تسبقها خطوات تمهيدية ثانوية فى ميدان الاقتصاد والثقافة حتى يمكن تحقيق هذا الهدف الكبير .

وقد تجلت صراحة الزعيم والبطل الشعبى حينما ترامت الى سمعه اشاعات جوفاء فى أثناء أزمة الخلاف : تقول تلك الاشاعات انه يؤمن بالدكتاتورية العسكرية ، وأنه يسعى لأن يجعل من نفسه « حاكما مطلقا » وأراد أن يقطع الطريق على المضللين ومفرقى الصفوف فصارح الشعب الجزائرى بكل ما سمع وقال :

« ان الاشاعة الاولى وهى اتهامى بالدكتاتور العسكرى غير صحيحة ، بدليل أننا قررنا تحويل جيش التحرير الوطنى الى جيش دائم منظم . ولو كان صحيحا لأبقينا على جيش التحرير كما هو . وأما الاشاعة القائلة بأننى أسعى لأن أجعل من نفسى حاكما مطلقا ، فهذا غير صحيح على الإطلاق ، بدليل أننى أول من تحمس لفكرة تشكيل المكتب السياسى . وهذه الفكرة فى واقع الأمر هى فكرة القيادة الجماعية التى كانت طابع الثورة وعمادا قويا لجميع أعمال جبهة التحرير » .

وقد قال أحد الضباط المجاهدين فى مدينة بالعباسى ابان أزمة الخلاف :

« ان أحمد بن بيللا - فى نظر الشعب - هو الثورة . انه أول من فكر فى الثورة ، وأول من أعلنها حربا لا هوادة فيها على فرنسا فى أول

نوفمبر عام ١٩٥٤ . انه أول من تطوع لها ، وعمل لها ، وأمدّها بالسلاح والعتاد ، ودرب الرجال ، وأنه أول من تحمل نتائجها . وقد حقق أحمد بن بيللا الاستقلال بفضل الثورة ، والآن لا يمكن أن يتحقق التقدم بدون الثورة .

نعم . . أحمد بن بيللا هو الثورة ، والثورة هي الشعب الجزائري بأسره . صورة صادقة من الشعب الذي صنع مجدا وقضى على أسطورة واهية : السيادة الفرنسية على ولاية الجزائر عبر البحر المتوسط .

دولة الجزائر المستقلة

ها هي الجزائر قد أصبحت دولة مستقلة رئيسها وزعيمها أحمد بن بيللا . لم تستطع فرنسا أن تمحو الحقيقة ، حقيقة الجزائر الجزائرية - وحقيقة بن بيللا زعيما لشعب الجزائر .

ظنت فرنسا - واهمة - بأن معارضتها لقضية الجزائر في رحاب الأمم المتحدة منذ عام ١٩٥٥ - ستوقف حتمية التاريخ - وأنها بالقضاء القبض على أحمد بن بيللا وزملائه ستقضي على ثورة شعب الجزائر - كانت فرنسا تعتقد أنها ستطفىء الشتمس بهذه السياسة . ولكن الآن ها هي الجزائر دولة مستقلة وهيئة الأمم المتحدة تقبل «جمهورية الجزائر» عضوا فيها .

سافر وفد جزائري من أربعة أعضاء في شهر سبتمبر عام ١٩٦٢ ليصبح جزءا من أول وفد جزائري دائم في الأمم المتحدة عند انضمام الجزائر للمنظمة الدولية . وكان «الدكتور محمد بن مبارك» رئيسا للوفد بالاشتراك مع «عبد القادر الشنادرلي» فمثل الجزائر في نيويورك ثم قدمت الجزائر طلب العضوية فور الانتهاء من تشكيل أول حكومة على أساس الانتخابات البرلمانية التي أجريت فيما بعد كما أوضحنا .

ووصل بن بيللا الى نيويورك يوم ٧ من أكتوبر على رأس وفد جزائري يتكون من خمسة عشر عضوا لحضور الدورة السابعة عشرة للجمعية العامة للأمم المتحدة - وألقى خطابا في الجمعية العامة بعد اعلان قبول الجزائر في المنظمة الدولية - واستقبل أحمد بن بيللا استقبالا حافلا .

وكان يوم ١٠ من شهر أكتوبر خالدا في تاريخ العالم وفي تاريخ الأمم المتحدة اليوم الذي ارتفع فيه علم الجزائر فوق الأمم المتحدة .

ووقف الزعيم أحمد بن بيللا على منصة الأمم وصفق له أعضاء وفود دول العالم أجمع وهم وقوف - لقد وقف جميع الأعضاء والتهبت أكفهم بالتصفيق الطويل كما لم يصفقوا من قبل . ما عدا وفد اسرائيل ! وشكرهم أحمد بن بيللا على هذه الحفاوة .

وألقى أحمد بن بيللا خطابه الذي أكد فيه أن بلاده ستبقى في معسكر الدول غير المتحازة .

وقال ان الجزائر ستقدم مساعدات غير مشروطة الى الوطنيين الذين يحاربون في سبيل تحرير أنجولا وروديسيا وأفريقية الجنوبية القريبة .

وضح بن بيللا - فى خطابه - اتجاه الجزائر فى سياستها الدولية وقد أثنى على يوثانت السكرتير العام الذى رأس - وهو مندوب لبورما - لجنة مجموعة الدول الآسيوية والأفريقية التى أيدت القضية الجزائرية تأييدا كاملا .

وأكد ليوثانت تأييد الجزائر له . . .

كما طالب بن بيللا باعطاء عرب فلسطين حقوقهم وقال . « انه لمن عوامل الخطر التى تهدد السلام والاستقرار الدولى أن تبقى مشكلة اللاجئين الاليمة بدون حل . وهى المشكلة التى سبق أن اتخذت الامم المتحدة بشأنها قرارا معيننا واضحا » .

وأعلن بن بيللا أن حكومته حريصة على احترام اتفاقيات ايفيان ، وانشاء علاقات جديدة بين الجزائر وفرنسا .

واستطرد يقول : « ان الحرب الجزائرية قد تجاوزت فى مفزاها النطاق الجزائرى اذ أصبحت مثلا يحتذيه كل شعب يريد التحرير من يد الاستعمار ، ولقد علمتنا التجربة التى عشناها أنه ينبغى أن تعتصم جميع الشعوب المتطلعة الى الحرية بأهداب التضامن ، كما يتحتم علينا أن نهدف سياستنا الى استئصال شأفة الاستعمار فى كل مكان ، وسوف يطالب الوفد الجزائرى بأن تنفذ الامم المتحدة تنفيذا صادقا التصريح الذى أعلنته بقرار من الجمعية العامة عام ١٩٦٠ ضد الاستعمار » .

وأكد بن بيللا أن حكومته تؤيد المبادئ التى أعلنها كل من مؤتمر باندونج وبلجراد . وقال ان الجزائر ستلزم الحياد ولكنه لن يكون حيادا سلبيا - لانها مصممة على أن تقف فى ميدان كل قضية عالمية الى جانب صيانة السلام والامن .

وطالب بن بيللا باعادة تنظيم الامم المتحدة بحيث تحصل الدول المتحررة حديثا على فرصة اكبر لاسماع صوتها فى الميدان الدولى .

وتقابل أحمد بن بيللا مع شخصيات عالمية لبحث المسائل المشتركة بين الجزائر وبين جيرانها - فلقد اجتمع فى اليوم التالى لوصوله الى نيويورك بالرئيس أحمد سيكوتورى رئيس جمهورية غينيا ، وبحث معه مسألة الوحدة الافريقية ، ومدى امكان قيامها .

وعقد عدة اجتماعات فى نيويورك مع الدكتور محمود فوزى، والسيد عبد الخالق حسونة . وتناولت المحادثات بينهم أزمة الجامعة العربية التى أصابها بالشلل . وكان لأحمد بن بيللا رأى فى أزمة الجامعة العربية الراهنة اذ قال : « ان ميثاق الجامعة العربية برغم من أنه ميثاق الجامعة ، متخلف وعاجز ، فانه لا يزال يتيح للامانة القيام بدور ليس اقل فعالية عن دور سكرتير الامم المتحدة » .

وأكد أحمد بن بيللا تصميمه على بذل وساطته وبحث الامر على أعلى

مستوى مع رؤساء الدول العربية . وقد اتجه الراى فى هذا الاجتماع بين أحمد بن بيللا وحسونة الى أنه يجب على أمانة الجامعة أن تبادر من جانبها بالدعوة الى عقد اجتماع للجنة خاصة تضم عددا من الدول العربية مثل المغرب والجزائر ولبنان والسودان ، وهى الدول التى تلتزم الحياد فى الخلافات القائمة داخل الجامعة على أن تقدم تقريرا «للامانة العامة» وتترح حلا لتصفية الجو .

وفى أثناء وجود أحمد بن بيللا فى نيويورك تلقى دعوات لزيارة كل من بريطانيا والاتحاد السوفيتى ويوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا والجمهورية العربية المتحدة . ولكن أحمد بن بيللا وراه مهام ضخمة ملقاة على عاتقه فى هذه الايام . مهام دولة حديثة ومستقبل شعب .

ولقد عرضت أمريكا على أحمد بن بيللا قبول عشرة ملايين دولار كهدية منها ولكن أحمد بن بيللا رفض هذا مفضلا أن تقدمها أمريكا فى شكل مساعدة للجزائر فى نطاق اتفاق اقتصادى بين الولايات المتحدة والجزائر .

ومن الطريف أنه حدث فى أثناء اجتماع أحمد بن بيللا مع « أوزفالدو دورتيكوس » رئيس جمهورية كوبا يوم وصوله الى نيويورك - أن طلب منه الصحفيون أن يصفح أعضاء الوفد الجزائرى الذين كانوا فى استقباله ليلتقطوا له صورا تذكارية .

وعلى الفور رد عليهم أحمد بن بيللا - وعلامات الجهد تبدو على وجهه : « أنا لست ممثلا سينمائيا » .

هذه لقطات سريعة تكشف لنا جوانب خفية عن شخصية أحمد بن بيللا ، ومدى أصالتها وعمقها ، والسياسة التى تسير عليها دولة الجزائر .

ووجهت دعوة رسمية للزعيم أحمد بن بيللا من الرئيس «جون كنيدي » وفى ١٤ من أكتوبر عام ١٩٦٢ وصل أحمد بن بيللا الى واشنطن للاجتماع بالرئيس الأمريكى و دين راسك وزير الخارجية . وكان فى استقباله جمع غفير من المستقبلين .

وعندما ظهر بن بيللا فوق أعلى درجات سلم الطائرة دوى المطار بالتصفيق والهتاف بحياة الجزائر الحرة المستقلة . ورد أحمد بن بيللا على جموع المستقبلين بتلويح يده بالتحية على حين أن الابتسامة تعلو وجهه .

واجتمع بن بيللا بالرئيس كنيدي ، وأجرى معه محادثات استغرقت ساعة كاملة .

وتبلورت سياسة أحمد بن بيللا - رئيس حكومة الجزائر - أمام الراى العام العالمى . فأصبحت للجزائر سياسة مستقلة فى المجال الدولى . وفى الوقت الذى انتهت فيه زيارة أحمد بن بيللا للولايات المتحدة .

كانت الاستعدادات تجري لاستقباله في كوبا - التي تنصّب الولايات المتحدة، المهددة .

وذهب أحمد بن بيللا الى كوبا في زيارة رسمية استغرقت أربعة وعشرين ساعة بدعوة من رئيس جمهوريتها .

واستقبال هناك - في هافانا - استقبالا حماسيا لم تشهد له كوبا
مثيلا منذ وقت طويل - واستقبله فيدل كاسترو وأعضاء حكومته في
المطار - بالحفاوة والترحيب وكان استقبال الشعب للزعيم الجزائري
منقطع النظير .

وأعلن أحمد بن بيللا - من هافانا - « أن جميع الشعوب الفقيرة بدأت تدرك أن الاشتراكية هي الطريق إلى الحرية ، وهي الطريق نحو التقدم - وأن الاستعمار هو سياسة النفاق ! » وقال بن بيللا : « اننا نحن الجزائريين نريد من الجميع العمل على إنهاء استغلال الانسان ، ووضع حد للبؤس والجهل . وهذا العمل شاق . كما أن النضال في هذا المجال طويل يصوره النضال في حرب التحرير . ولكننا بمشيئة الله سوف نتصر مهما كانت العقبات في الطريق نحو مستقبل أفضل » .

وشرح أحمد بن بيللا - حينما غادر كوبا - أن الجزائر تستطيع أن تكون علاقات طيبة مع كل من الولايات المتحدة وكوبا في وقت واحد عن طريق الاحتفاظ بشخصيتها الحقيقية .

وعاد أحمد بن بيللا من رحلته الى أمريكا وكوبا بعد أن أعلن - في
هيئة الأمم المتحدة - عن منهج سياسته في المجال الدولي .

عاد الى الجزائر بعد أن شارك رؤساء الدول مناقشة المشكلات الدولية ، وأعلن عن رأيه في كل مشكلة ، كما أوضح للرئيس الأمريكي موقف الجزائر من مختلف المشكلات وفي مقدمتها كوبا وبرلين ، وأكد الزعيم الجزائري تمسكه بسياسة الحياد وعدم الانحياز في الشؤون العالمية ، وقال ان الجزائر تؤيد مساندتها للحركات التحررية في افريقية ، فلم تكن ثورة شعب الجزائر على فرنسا من أجل أن تنال الاستقلال فقط ، بل ان جمهورية الجزائر تشارك بجهود فعالة في المشكلات العالمية من أجل الحرية والبناء والتقدم والسلام .

وقال أحمد بن بيللا ان الجزائر على وعى وادراك تام بالمسئوليات الكبيرة التي ألقيت على عاتقها بعد انضمامها الى هيئة الامم المتحدة . . وأعلن في مؤتمر صحفي أن الجزائر لن تطلب ، ولن تقبل أية مساعدات اقتصادية مقترنة بشروط سياسية .

وقال : ان الجزائر قد ابطلت فرنسا أنه من المستحيل أن توافق
الجزائر على اجراء أية تجارب ذرية فرنسية في الأراضي الجزائرية .
وحينما سئل عن امكان قيام الاتحاد الافريقى المغربى ، أعلن أن وحدة
المغرب الكبير رغبة أساسية لشعوب شمالى افريقية ، ومشكلة فى غاية
الاهمية ، ويجب معالجتها بحسب جدية تامة .

ومنذ ان عاد احمد بن بيللا من رحلته الى أمريكا «في ٢٠ من أكتوبر» الى الجزائر بدأت الاستعدادات تجري للاحتفال بالذكرى الثامنة لعيد ثورتها وكان الاحتفال بالغاً منتهى الروعة في أول نوفمبر عام ١٩٦٢ . كان يوم عيد للعرب أجمعين ، ولأنصار السلام والحرية في العالم . عيد ثورة دامت ٨٩ شهرا ! راح ضحيتها أكثر من مليون شهيد ، وكلفت فرنسا مليون جنيه يوميا . وراح ضحية المعارك فيها نصف مليون فرنسي . انه يوم النصر . وانها قصة كفاح عربي في أروع صورها . انها قصة شعب صمم على أن يتحرر ، فانتصر . . انها قصة أحمد بن بيللا ابن شمالي افريقية الغالي .

تم الكتاب

المراجع

- ١ - الجزائر الثائرة وزارة الثقافة والارشاد القومي
تأليف - كوليت وفرانسيس جاتسون
- ٢ - الجزائر بين الأمس والغد - حمدي حافظ - محمود الشرقاوي .
- ٣ - الاستعمار والمذاهب الاستعمارية - دكتور محمد عوض محمد .
- ٤ - أيام المجد في جبال وهران - للرسام طوغان .
- ٥ - الثورة الجزائرية - كتب افريقية آسيوية .
- ٦ - التقرير الرسمي لوفد الجزائر في مؤتمر الشعوب الآسيوية
الافريقية .
(٢٦ من ديسمبر عام ١٩٥٧ - الأول من يناير عام ١٩٥٨)
- ٧ - دروب القومية العربية - الدكتور عبد الله عبد الدايم .
- ٨ - مذكرات الصحفي كيرول الانجليزى عن الجزائر .
- ٩ - أراب أوبرفر - القاهرة
- ١٠ - صحف القاهرة :
الجمهورية - الشعب - الاخبار - الاهرام - المساء .
فى شهرى أكتوبر - نوفمبر عام ١٩٥٦ - وحتى عام ١٩٦٢ .
- ١١ - مجلات القاهرة :
التحرير - المصور - روز اليوسف - آخر ساعة - القوات المسلحة
- ١٢ - الثورة الجزائرية - (باللغة الانجليزية) - الدار القومية للنشر .
- ١٣ - الصحف العالمية - بارى ماتش - لوموند - تايمز سبكتاتور .
- ١٤ - الاستعمار الفرنسى فى المغرب العربى .
تأليف - هنرى كلود - اندريه بريتان - ايف لاكوست .

فهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم	٧
الرأس الملهب	١١
احمد بن بيللا ٠٠٠ الثائر الأول	٢٧
احمد بن بيللا يتحدى الموت	٤٩
بن بيللا يقود المعركة من السجن	٦٧
الافراج عن بن بيللا	٨٦
بواذر مقلقة	١٠٥
أزمة الخلف	١٠٧
العاصفة تمر بسلام	١١٦
دولة الجزائر المستقلة	١٢٤
المسراجع	١٢٩

استدراك

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٢	٢٦	لقيم	للقيم
٢٥	٦	بحرمة	حرمة
٢٩	١	وطلبنا	وطلبنا
٣٠	٩	عن	أن
٣١	٣١	وزملاؤه	وزملائه
٣٣	٣٠	عند القادر	عبد القادر
٤١	٢٢	وتحدير	وتحرير
٤٤	٢٥	الفاء	والفاء
٥١	٣٦	يبدأ	يبدء
٥٢	١	السامية	السيامية
٥٣	٨	تتهى	ينتهى
٥٣	١١	فرنسا أن	فرنسا على أن
٥٤	٢	واترلوا	واترلو
٥٦	٧	وعشرىم	وعشرين
٥٧	٣٢	أو	أن
٦٠	٩	عن	على
٦٠	٢٦	١٩٤٧	١٨٤٧
٦٢	١٥	يستطيعون	يستطيعون
٦٤	٢٩	خطاه	خطأه
٦٤	١	أهد نداد	أهداف
١٢٥	٣٢	برغم من أنه ميثاق الجامعة	بالرغم من أنه ميثاق
١٢٥	٣٤	مكرتير	مكرتيرية

ملحوظة : السطر قبل الأخير ص ٧٣ يوضع بعد الأخير .

هيئة قناة السويس

مناقصة عامة لمقاولي

القطاع العام

تطرح هيئة قناة السويس في مناقصة عامة عملية انشاء كوبرى
الرسوة بمدخل بور سعيد مكون من فتحتين متحركتين وأربع
فتحات ثابتة من الخرسانة المسلحة ويرتكز على قيسونات
خرسانية .

ويمكن الحصول على مستندات المناقصة بالحضور
شخصيا الى مقر الهيئة بالاسماعيلية (التخطيط والأبحاث)
.. وذلك نظير مبلغ خمسة وعشرين جنيها وتقدم العطاءات
باسم السيد / رئيس هيئة قناة السويس (التخطيط والأبحاث)
في ميعاد أقصاه الساعة الثانية عشرة ظهرا يوم الاثنين ١٥ أبريل
١٩٦٣ مصحوبة بتأمين ابتدائي قدره ثلاثة آلاف جنيه ..
ولن يلتفت الى أى عطاء يقدم بعد هذا الموعد أو غير مصحوب
بالتأمين المذكور .



الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عتيق - روضة الفرح

٤١٠١٤ / ٤٠٧٥٣ } تلفون
٤٠٨١٤ / ٤٠٥٨٨ }

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عتيق - روض الفرج

٤١٠١٢ / ٤٠٧٥٣ } تلفون
٤٠٨١٤ / ٤٠٥٨٨ }